البرخت زيمه

شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين

في مائة عام

(١٧٧٠ - ١٨٧٠م)

الجزء الأول

الرحلات إلى الحجاز وعسير ونجد

ترجمة

د. غازي عبد الرحيم شنيك

صدرت بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

مكتبة الملك عبد العزيز العامة

الرياض ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

ⓒ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زيمه، البرخت

شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في عام (١٧٧٠م - ١٨٧٠م) / ترجمة غازي عبدالرحيم شنيك .- الرياض .

١٣٧ ص ؛ ١٧X٢٤سم

ردمك ١-٤٧-٦٢٤-٩٩٦٠(مجموعة)

٨-٤٩-٦٢٤-٩٩٦٠ (ج ١)

١ - الجزيرة العربية - وصف رحلات ٢- السعودية - وصف رحلات

أ- شنيك ، غازي عبدالرحيم (مترجم) ب - العنوان

ديوي ٩١٥,٣٠٠١ ١٩/٤١٣٨

رقم الإيداع : ١٩/٤١٣٨

ردمك : ١-٤٧-٦٢٤-٩٩٦٠(مجموعة)

٨-٤٩-٦٢٤-٩٩٦٠ (ج ١)

نشر الاصل بالالماني بواسطة :

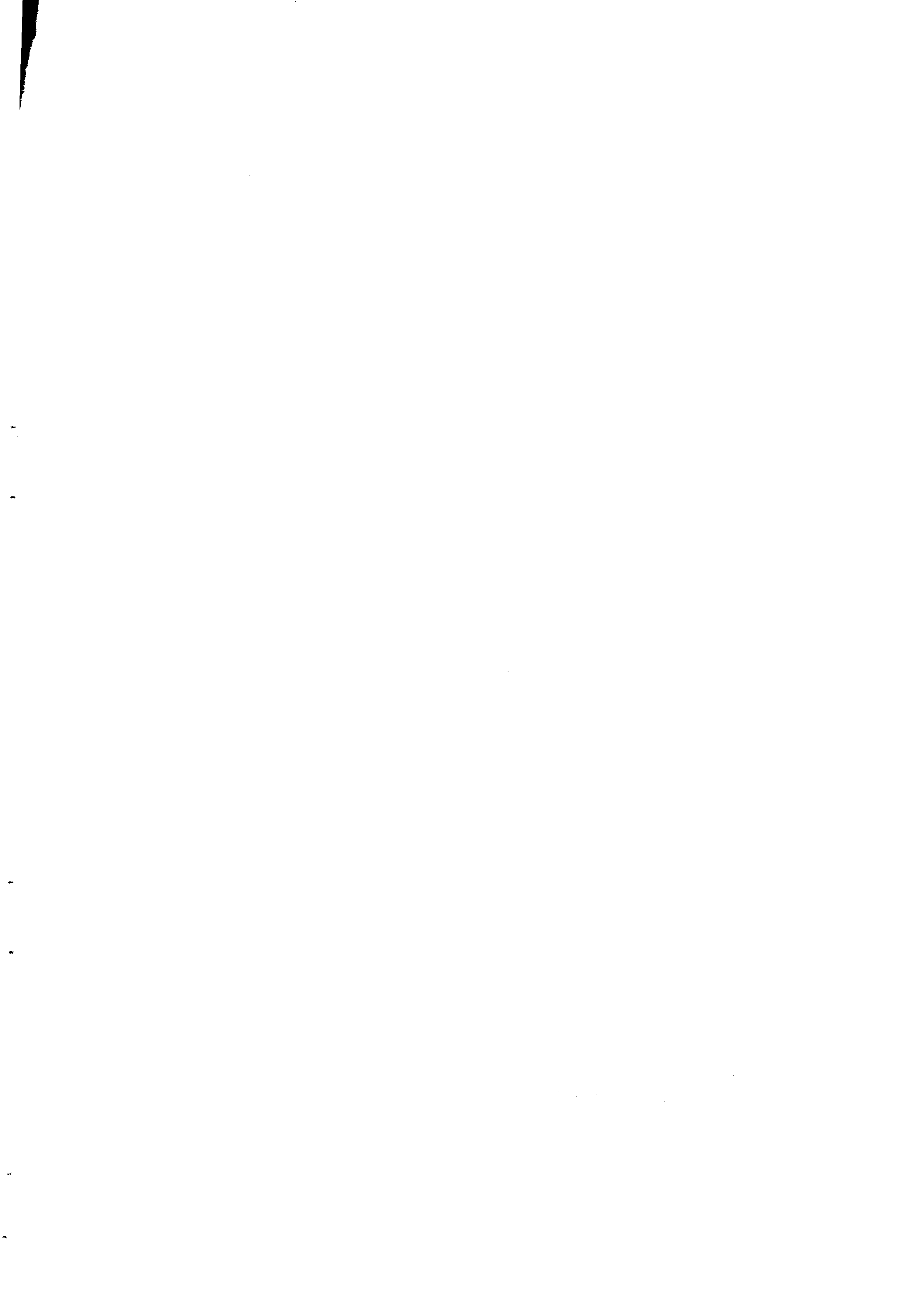
دار نشر بوخ هاندلونغ دس فايزن هاوس - هاله ١٨٧٥م

Arbien und die Araber Seit hundert Jahren
Eine geographische und geschichtliche Skizze.


بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**



تصدير

الحمد لله على نعمة التوحيد والوحدة ، والشكر للمولى عز وجل على شرف حمل رسالة نبي الأمة ، وخدمة أقدس بقعتين على وجه الأرض ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كانت هذه الأمّة ـ ومازالت ـ تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني بعد ما تشرفت بهبوط الرسالة الإسلامية على أرضها الطاهرة ، لتنير ظلام العالم وتبدد جهالته ، تنجب الرجال الأفذاذ على مدار التاريخ ، فخرج من صلب أرض الجزيرة العربية ، من قيضهم الله تعالى ، ليعيدوا لهذه البلاد الغالية مجدها وسؤددها ويدخلوها التاريخ الحديث بعد قرون من التنازع والتناحر والفرقة وانتشار الخوف على النفس والعرض والمال ؛ فكان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ الذي حقق فيها ما يشبه المعجزات في فترة زمنية محدودة، حينما زاوج بين الماضي والحاضر ، في أسلوب عزَّ أن يكون له مثيل في العالم ، وأصبحت إنجازاته ـ طيب الله ثراه ـ دينًا على عاتق أجيال هذه الأمة حاضراً ومستقبلاً .

انطلقت مسيرة التوحيد المظفرة في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ ؛ لتتوالى مسيرة الوحدة والبناء لهذه البلاد . والآن وبعد مسيرة المائة عام التي نحتفي بها جميعًا ؛ تخليداً لذكرى استرجاع الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ لمدينة الرياض ، والإعلان عن هذه الانطلاقة المظفرة والميمونة

لتوحيد أجزاء الجزيرة العربية في وحدة عظيمة لا مثيل لها في العصر الحديث ؛ وتقديراً لما تحقق من إنجازات عظيمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز ـ حفظه الله ، فإن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة التي تشرفت بحمل اسم الملك المؤسس والتي أنجزها ورعاها بخيره وبره صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء، رئيس الحرس الوطني والرئيس الأعلى لمجلس إدارة المكتبة ـ حفظه الله ـ تشارك في هذه المناسبة الغالية علينا جميعًا بمجموعة من المشاريع العلمية والتوثيقية لتاريخ الملك المؤسس ـ طيب الله ثراه ، حيث تأتي ترجمة كتاب (**شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحّالة الغربيين في مائة عام «١٧٧٠م ـ ١٨٧٠م»**) إلى اللغة العربية ترجمة صادقة لاهتمام المكتبة بدعم ومساندة الدراسات التي تخدم تاريخ الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ وتاريخ المملكة العربية السعودية وتراثها الوطني .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

حول ترجمة هذا الكتاب

وصل منذ منصف القرن الثامن عشر عدد من الرحالة الغربيين إلى منطقة شبه الجزيرة العربية ودرسوا أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ودوّن الكثير منهم ملاحظاته عمّا رآه بنفسه أو سمعه أثناء رحلته في تقارير صدرت على شكل كتب أو مقالات نُشرت في المجلات الغربية بلغات عديدة من بينها اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية واللغة الالمانية.

وهذا الكتاب الذي أضعه مترجمًا عن اللغة الالمانية إلى اللغة العربية بين يدي القارئ العربي الكريم كتبه العالم الالماني ألبرخت زيمه وصدر في مدينة هاله الالمانية في عام ١٨٧٥م . والكتاب ليس وصفًا لرحلة قام بها الكاتب إلى جزيرة العرب وانما هو ملخص لأهم ما جاء في تقارير الرحّالة الغربيين التي نشرت خلال مائة سنة (من عام ١٧٧٠م حتى عام ١٨٧٠م). وكان المنهج الذي اتبعه الكاتب في كتابه هو تتبعه لخط سير هؤلاء الرحالة في الاجزاء المختلفة من الجزيرة العربية مع التعليق على اهم ما دوّنوه عن جغرافية البلاد التي زاروها واحوالها الاجتماعية . وكان الكاتب يهتم في هذا المجال بمقارنة معلومات كل رحّالة زار الجزيرة العربية في الفترة قيد البحث مع معلومات زملائه متوخيًا من هذه المقارنة النقد الموضوعي مع محاولة التقيّد بالتتابع الزمني والجغرافي لهذه الرحلات . ومن بين ما كان يهدف إليه الكاتب من اتباع هذا المنهج التسهيل على القارئ للحصول على المعرفة والاطلاع بسرعة على اهم ما جاء في اوصاف هذه الرحلات من معلومات لاغنى عنها لمعرفة احوال شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة الزمنية .

قُسِّم الكتاب إلى ثلاثة اجزاء هي مقدمة طويلة حول التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية وجزء ثان يلخصّ فيه الكتاب الاوصاف الجغرافية والاجتماعية التي اوردها الرحالة الغربيين في تقاريرهم المنشورة في الفترة من عام ١٧٧٠م حتى عام ١٨٧٠م ، اما الجزء الثالث من الكتاب فقد خصصه المؤلف لسرد الاحداث التاريخية التي وقعت في الفترة المذكورة .

بعد قراءة متمعنة لهذه الاجزاء وجدت ان الجزء الجغرافي هو الجزء الذي قد يقدم للقراء العرب معلومات مفيدة عن احوال بلاد العرب في تلك الفترة . وبسبب الحجم الكبير لهذا الجزء فقد اكتفيت في هذا الكتاب الأول الذي اضعه الآن بين يدي القارئ الكريم بترجمة اوصاف الرحلات الغربية إلى الحجاز وعسير ونجد مع الأمل في اكمال ترجمة اوصاف المناطق الاخرى من شبه الجزيرة العربية في كتاب ثان سيصدر باذن الله في المستقبل القريب . وفي هذا الكتاب الأول حاولت ما أمكن ترجمة النص ترجمة حرفية ، وفي بعض الاحيان كنت اترك ترجمة بعض التفاصيل والالفاظ سواء بسبب ما اعتراها من اخطاء أو ضعف أو لعدم ملائمتها لأوضاع وتقاليد بلادنا الكريمة . ومع كل ذلك فانني لم ازد شيئًا قد يغيّر النص أو معناه . واخيراً أود الاشارة إلى وجود بعض التحريف في كتابة بعض اسماء المواضع والقبائل المذكورة في الكتاب . وربمّا يعود ذلك في ما يعود إليه إلى تعدد الترجمات التي تبدأ باللغة العربية ثم تعود إليها بعد أن تمر بإحدى اللغات الاجنبية . وقد حاولت التخفيف ما امكن من هذا الاضطراب بمقارنة هذه الاسماء بما ورد في المعاجم الجغرافية للبلاد العربية السعودية لعلامة الجزيرة حمد الجاسر وفي « دليل المواقع الجغرافية بالمملكة العربية السعودية» الذي اعدته الجمعية الجغرافية السعودية واصدرته دار نشر مكتبة العبيكان في عام ١٩٩٨م .

والله وليّ التوفيق .

د . غازي عبدالرحيم شنّيك

الفصل الأول

الساحل : من العقبة حتى جدة

نبدأ رحلتنا بخليج العقبة الذي يقع شرقي شبه جزيرة سيناء وتحاذيه شرقًا وغربًا سلاسل جبال ترتفع السلسلة الشرقية منها حتى علو ٦٠٠٠ متر (حسب قياس الضابطين الإنجليزيين مورسبي وكارليس). وعلى الجانب الغربي من الخليج نعثر على البيوت التي يوجد بالقرب منها تماثيل قبور ربما تعود إلى العهد النبطي . وإلى الجنوب من هذا الموقع توجد العيون التي تقع أيضًا مثل (بيدن) على طريق الحج المصري . وكان أبناء قبيلة الحويطات رفضوا حتى تسهيل نزول ضباط بعثة قياس إنجليزية إلى البر لأخذ القياسات ناهيك عن السماح لهم بالبحث عن خرائب (بيدن) في منطقة المصيطي أوالمصيط . ولذا فإن ما نعرفه عن المنطقة يقتصر على ما رآه الجوّاب ريبل في عام ١٨٢٦م عندما تجول فيها وانتقل من مويلح على الساحل إلى الشمال. وكان ريبل رأى قبور دون نقوش أو كتابات ذكرّه شكلها بالبتراء.

يتحدث الضابط الانجليزي فيلشتيدت الذي كان أحد أعضاء بعثة القياس المذكورة أعلاه عن مواقع ساحلية في هذا الجزء من البحر الأحمر أولها عَيونه ـ أو عيون ـ ، وثانيها مويلح (وما بها من قصر ومخزن وثكنة) التي لا توصف بأنها مرسى جيدًا. وحسب بيانات الرحّالة والن فإن وجود الماء في المنطقة ساعد على نمو أشجار النخيل. ويشير رحالة آخر هو بوركهاردت إلى وجود مراع جيدة في

المنطقة . وتهطل الأمطار على المنطقة بين شهري أكتوبر وأبريل وتظل الشهور الأخرى حارة وجافة . وخلف المنطقة ترتفع سلسلة جبال شفا إلى ذورة مسننة ، اسمها عند الرحالة الألماني إيهرنبرغ جبل شعر ، يبلغ ارتفاعها حسب حسابات الجوابين الإنجليز ٧٠٠٠ متر . ولأن المواقع في هذه المناطق البدوية لابد وأن يربطها العرب بإحدى القبائل فإن بني عُقبة الذين يسكنون عادة في الجوار يدّعون ملكيتهم لمويلح ومن ثَمَّ أحقيتهم في تجنيد الخفراء .

يسمى العرب المنطقة الواقعة بين البحر وسلسة الجبال ـ التي تبعد عنه نحو ثماني ساعات ـ الساحل . ويخترق هذا الساحل وديان تصل إليه من الناحية الجنوبية الغربية . ويوجد بجبال المنطقة مكونات غرانيتية . والقبيلة الرئيسة بين وادي موسى ووجه هي قبيلة الحويطات وإلى جانبها وجانب بني عقبة توجد قبيلة المسائيط التي تقول أنها هاجرت إلى المنطقة من اليمن .

وإلى الجنوب من مويلح نرافق فيلشتيدت إلى حجار ، ذات المرسى السيِّئ . وفي مرسى اسلم وجزيرة نعمان المقابلة لـ (حجار) يوجد ماء عذب . وحسب فيلشتيدت كانت مساكن الحويطات تمتد من مجنا على خليج العقبة إلى هذا الموقع . وفي عام ١٨٣٠ م قضى شيخ مشايخ هذه القبيلة مع عشرات من رجاله ليلة على إحدى السفن الانجليزية . وقبل أن يتجه العرب إلى النوم سلّموا أسلحتهم للغرباء كبادرة "ثقة غير متوقعة ولكنها تبعث على الرضى" . وحتى عندما كان الإنجليز ينزلون إلى البر فإن الحويطات كانوا يعاملونهم بود ، أي بطريقة مختلفة تمامًا عن منع الأبحاث في (بيدن) [انظر أعلاه].

من أوصاف مواقع المنطقة أن شرم غسّه ليس مرسى وإنما خليج ، وأن إسطبل عنز هو جزء من سلسلة جبال ومحطة حجاج . أما (الوجه) فهي قرية فقيرة تابعة لآل

بلي ويبلغ عدد سكانها ٧٠٠٠ نسمة وتصلح كمرسى للمراكب الصغيرة . وتنقطع عند هذا الموقع الشعاب الصخرية التي تمتد بموازاة الساحل . وتعتبر جزيرة ريشة المجاورة علامة إرشادية مضمونة للميناء . وعلى بُعد ثلاثة أرباع الميل من هذا الساحل المجدب توجد مياه عذبة في قلعة صغيرة تخدم الحجاج . كما أن أبناء قبيلة بلي الذين تمتد منطقتهم رحلة ستة أيام إلى الداخل فانهم يتصرفون دون اي تطاول ديني أو قومي . وقد فوجئ شيخهم عندما منحه الإنجليز هدية .

وعلى بعد ميل ألماني من (وجه) وجد فيلشتيدت كتابات منقوشة في الصخر . ووجد على بعد ميلين في وادي المويه خرائب بناء قديم سمكه ستة امتار ومبني بحجارة منحوته ولكنها تخلو من الكتابات . ويجدر ملاحظة أنه عند هذه المنطقة تبدأ أقصى نقطة جنوبية لمملكة النبطيين التي انطلق منها ألوس جالوس ببعثته في اتجاه (العربية السعيدة) .

تبرز جزر المرجان جنوبي الوجه من البحر ذي النتوءات الكثيرة ، على سبيل المثال ميردونا . وعند هذه الشواطئ يزدهر فن الغطس . وفي أيام فيلشيتدت غطس غطاس عجوز ثلاثين خيطًا دون أن يتعرض لمتاعب كبيرة .

بعد ذلك بمسافة قصيرة كان المرء يصل إلى محطة الحجاج المسماة الحوارة أو دار العشرين ذات المياه الوفيرة . وهنا تنتهي منطقة بلي وتبدأ منطقة جهينة . وبعد زيارة جزيرة حسنية ، التي يوجد فيها تجارة سمك مهمة زار الضابط الإنجليزي فيلشتيدت في الداخل مخيمًا للبدو يتكون من ١٥٠ كوخًا لها أشكال مربعة غير مخروطية ، تشبه أشكال أكواخ قبائل الشمال . والمخيم مُقام بين خطي دائرة مزدوجين يوضع فيهما في الليل الماعز والخراف . ويقع كوخ الشيخ دائمًا في

الناحية الغربية وتُغرس أمامه حربة للتعرف عليه . وكان استقبال الشيخ العجوز لفيلشتيدت وديًا وسُرّ سرورًا عظيمًا من عطفه على الأطفال .

عند رأس محار ومرسى شرم محار يرتفع الساحل ، الذي هو رملي في جزء وصخري في جزء آخر ، إلى هضبة تعلو ما بين ١٠٠ و ٢٠٠ متر . وعلى بعد يتراوح ما بين ٣ إلى ٤ أميال ألمانية من البر شاهد المرء سلسلة الجبال الموازية لجبل رضوى التي ترتفع حتى علو ٢٠٠٠ متر في ذروات هرمية منفردة .

وعلى مسافة لا تبعد كثيرًا عن شرم حُصيْ كان يخيم عدد من البدو . وقد جلب أحدهم إلى سفينة فيلشتيدت ابنه الشاب البالغ من العمر ١٨ عامًا والذي ظهر فخذه محترقًا من أثر إحدى الطلقات التي أصابته . وبعد معاينة جرّاح السفينة لفخذ الشاب أشار بضرورة قطع العضو المصاب ؛ وكان تعليق أب الشاب على قول الجراح : « لا تهتم ياإفرنجي فالحياة بيد الله . اقطع العضو وسيتولى الرحمن أمر شفائه » . وهذا القول أمنّ عليه الشاب بالموافقة .

أخيرًا ، وصلنا إلى ينبع وفي ذات الوقت إلى ميناء ينبع النخل الواقع على بعد أربع أميال باتجاه الشمال الشرقي حيث يملك السكان بيوت ريفية ونخيل . ويقول فيلشتيدت أن ينبع تملك ميناءً ممتازًا هو الأفضل على طول كل الساحل . أما ساحة السوق الفقيرة فكان لها ملامح عربية وتغطيها سعف النخيل . والبيوت مبنية من الجص أوالحجارة المرجانية وبها مركز جمرك تركي وحمام وبعض المطاعم . ومن النادر أن توجد الآن آبار . وكان بوركهاردت امتدح عذوبة المياه ولكنه اشتكى من أسراب الذباب المزعجة للغاية ؛ ويشاطر الرحالة بورتون رأي بوركهاردت ويشير إلى وجود جدول ماء في شمال المدينة . وكان سكان ينبع يلبسون ملابس

تشبه ملابس البدو . وفي عام ١٨٧٠م وجد فون مالتسان الأهالي أكثر حشمة من عام ١٨٦٠م . ويوجد في ينبع شارع يكثر فيه الحوانيت التي تبيع بضائع تصلح للاستهلاك خلال الرحلة البرية إلى المدينة المنورة .

ترتفع جبال رضوى في هذا الموقع نحو (٥٠٠٠ متر) وتبعد نحو ستة أميال عن المدينة . وفي أيام فيلشتيدت كانت الواردات في أكثرها من القمح والبنّ والقماش وتذهب إلى أسواق منطقة الحجاز الشمالية والمدينة المنورة ونجد الغربية . ويجلب البدو إلى هذه الأسواق الزبدة والعسل والفحم .

تشير أطلال الـ (جار) الواقعة على الساحل إلى الجنوب من ينبع إلى موقع الميناء السابق للمدينة المنورة . وإلى الشرق في اتجاه الداخل تقع بدر في الوادي بين الصخور والكثبان . والموقع مشهور بسبب النصر الذي أحرزه المسلمون على قريش بالقرب منه . و هنا رأى بوركهاردت صقوراً كثيرة ويُعتقد أن الجبال بها أعداد من النمور الرقطاء . وفي اتجاه الشمال قام الفرنسي فريزنل في عام ١٨٣٨م عن طريق (صفراء) برحلة استكشافية للتنقيب عن صخرة منقوشة . والواقع أن فريزنل لم يغنم كثيراً من وراء هذه الرحلة .

بعد شرم بوريكه على الساحل يأتي ميناء (مستورة) . وعلى بعد ميل ونصف من الميناء في اتجاه الداخل توجد محطة تحمل الاسم نفسه وتقع على طريق الحج المصري . ويأتي بعد ذلك الميناء الذي يتبع محطة رابغ . وفي هذا الموقع كان أفراد قافلة الحج المصرية يلبسون ملابس الإحرام التي تتصف بأنها غير صحية ورخيصة الثمن . بعد ذلك تأتي مواقع مرسى ذنيب والطوال وأبُحر وصخور ناتئة وجزر ورؤوس كثيرة ،على سبيل المثال رأس حطبة . ويتصف الساحل بأنه منبسط في

الغالب وبه بعض أشجار الميموزا ونخيل الدوم وشجيرات صغيرة . ويقابل المرء بعض أكواخ الصيادين البائسة ومضارب للبدو الرحل . وكان فيلشتيدت قدم وصفًا حيًا لأحد هذه المخيمات عند الغروب : كان المرء يرى على البعد أغنامًا وحماراً وأنعامًا اخرى يقودها فتى ويقترب بها من المخيم . وبينما كانت الفتيات تستعد لحلب الاغنام كانت النساء الأكبر سنًا ينشغلن بتحضير طعام العشاء المكون من كميات كبيرة من الأزر التي توضع في قصعات خشبية مدورة ويُصب عليها الزبدة . أما الرجال، الكبار والصغار ، فكانوا يؤدون فريضة الصلاة راكعين ساجدين على الرمال وأمامهم سيوفهم . وحدث في ذلك الوقت أن اقترب أحد البدو وطلب شربة ماء من إحدى النساء التي أجابته أولاً بقولها : « يا أيها الغريب ، لا يوجد لدينا ماء» . بعد ذلك ذهبت إلى الخيمة ورجعت وفي يدها آنية من الحليب قدمتها إلى الغريب في يد وأمسكت بردائها باحتشام في يد أخرى . وبعد انتهاء الغريب من الشرب شكر المرأة قائلاً : « السلام عليك» ثم أعاد إليها الآنية وذهب في طريقه .

* * *

الفصل الثاني

الحجاز

نسترشد في رحلتنا إلى الحجاز بالمعلومات التي وردت في الدراسات الغربية المنشورة في المائة عام الأخيرة . وهذه المعلومات كانت هي مصدر البيانات التي قدمناها في الصفحات السابقة . ودليلنا الأول في هذا المضمار هو كارستن نيبور الذي قام في الفترة من عام ١٧٦١م حتى عام ١٧٦٤م على نفقة ملكيْ الدانمارك فريدريش الخامس وكريستيان السابع برحلة إلى بلاد العرب رافقه فيها بعض العلماء وأحد الرسامين . وفي أثناء هذه الرحلة مات رفاقه وعاد بمفرده معافى إلى كوبنهاغن . وكان نيبور يتصف بالنشاط والحصافة والصدق مما دعا بلغريف إلى وصفه قائلاً : « يحب الحقيقة مثل الإنجليز ويتوخى الدقة مثل الألمان » . وحتى يومنا هذا تعتبر تقارير نيبور عن اليمن في غاية الدقة . أما مؤلفاته التي نستقي منها معلوماتنا في هذا الكتاب فهي : (أوصاف رحلة إلى بلاد العرب ، مجلدين) و(وصف بلاد العرب ، مجلد واحد). وهذه المؤلفات خلّدت اسم نيبور على مر العصور . ومع أن نيبور لم يزر إلا مواقع متفرقة من الحجاز والساحل المتاخم له من الشمال فإنه استطاع بواسطة الاستطلاع تحديد عدد من الرؤوس والمراسي (الشروم) والقرى .

إننا نعرف القليل عن أعمال الجوّاب الألماني أولريش ياسبر سيتزين ابن مدينة (اولد نبورغ) الذي سافر إلى اليمن متخفيًا على هيئة درويش واختفى هناك دون

أي أثر ولا يعُرف إلا لمامًا عن إقامته في بداية القرن في مكة والحجاز (صدر له مؤخراً كتاب : رحلات إلى سوريا وفلسطين والجزيرة العربية ومصر . برلين ، ١٨٥٥م ـ ١٨٥٩م) . ولذا فإن دليلنا الثاني الذي تسرى أيضًا الدماء الألمانية في عروقه هو الرحالة السويسري يوهان لودفيغ بوركهاردت الذي جاءت رحلته بتكليف من مؤسسة إنجليزية وزار في الفترة من عام ١٨١٤م إلى عام ١٨١٦م جدة وينبع ثم تخفى كحاج وأدى شعائر الحج في مكة والمدينة وقدم لنا أول معلومات دقيقة عن تلك المناطق التي تعتبر خطرة للأجانب . وفي كتابه «رحلات إلى الجزيرة العربية» والكتاب الآخر الذي يعتبر في صالح البدو «ملاحظات حول البدو . . (ترجم عن اللغة الإنجليزية إلى اللغة الألمانية في عامي ١٨٣٠م و١٨٣١م)» تميز بوركهاردت بالصدق الشجاعة . وهذا العالم دفع حياته ثمنًا لحماسه في طلب المعرفة العلمية : فالمرض الشديد الذي أصابه في المدينة المنورة واستمر ثمانية أسابيع لم يكن إلا المرحلة الأولى التي أدت سريعًا إلى وفاته .

في عام ١٨٣١م وفي أعوام تلته بدأ اللفتنانت (لاحقًا الكابتن) فيلشتيدت ، الذي كان أحد ضباط مجموعة إنجليزية لقياس الشواطئ العربية ، رحلة أوصلته من شبه جزيرة سيناء إلى جدة . وأثناء هذه الرحلة كان فيلشتيدت يتوقف عند مواقع على الساحل مما ميّز هذه الرحلة بالموضوعية والملاحظة الدقيقة والأهمية البالغة لمعرفة هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية ولأبحاثه اللاحقة في منطقة عمان ومواقع حضرموت الساحلية . وفي عام ١٨٣٨م نشر فيلشتيدت أوصاف رحلته في كتاب يقع في مجلدين ونشره روديغر باللغة الألمانية في عام ١٨٤٢م . كما ويجدر ذكر أعمال بروس حول الحجاز التي كانت في أول الأمر مثار اختلاف ثم أكسبها فيلشتيدت مصداقية وسمعه حسنة .

إضافة إلى هؤلاء الجوّابين سنستفيد من زيارتين لجدة قام بهما في عامي ١٨٢٧م و١٨٣١م الرحالة الألماني روبيل ومن زيارات الفرنسي تاميزيه لعسير ومن دراسات عالم النباتات الألماني شيمبر الذي تجول في عام ١٨٣٥م، منطلقًا من جدة، في الطائف وفي منطقة مدينة مكة التي كان لا يبعد عنها أكثر من ساعتين .

ومما له أهمية قصوى لشبه الجزيرة العربية وبالذات لجدة ، التي هي ميناء الحجاج المسلمين من دارفور حتى بخارى ومن جاوه حتى تمبكتو ، المعلومات التي حصل عليها القنصل الفرنسي في جدة فلوغنس فرينزل ونشرها في كتاب بعنوان «حول جغرافية شبه الجزيرة العربية» (المجلة الأسيوية منذ ١٨٤٠م) وفي كتب أخرى . ونشير فيما يلي إلى كلمة كتبها هذا العالم : « إن العربي يفوق من ناحية جمال الشكل والأدب الفطري ورشاقة البدن وأيضًا من ناحية اللغة العريقة والعلمية كل أجناس الشعوب الأخرى » .

في عام ١٨٤٥م انتقل العالم السويدي الشاب جورج والن من حائل إلى المدينة المنورة ولكنه لم يترك وصفًا عن هذا الجزء من رحلته . وفي عام ١٨٤٨م انتقل هذا الباحث الممتاز من مويلح إلى الشرق وكتب عن رحلته في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد ٢٠ ، ٢٤ . وسوف نتعرض لاحقًا لهذا القسم المهم من أبحاثه حول الهضبة الداخلية لشبه الجزيرة العربية .

في عام ١٨٥٣م زار اللفتنانت (لاحقا الكابتن) الإنجليزي ريتشارد بورتون المدينتين المقدستين بوصفه درويشًا أفغانيًا . أما الألماني هاينريش فون مالتسان الذي توفي في ٢٢ فبراير ١٨٧٤م في حادث مؤلم فإنه تجرأ على دخول مكة في عام ١٨٦٠م . وبعد تعرضه للخطر وفراره من مكة فإنه لم يشاهد المدينة المنورة واكتفى

بملاحظة الساحل من جدة إلى ينبع . وحول هذه الرحلة كتب فون مالتسان مجلدين أحدهما «رحلة الحج إلى مكة» والآخر حول زيارة أخرى لجدة في نوفمبر ١٨٧٠م ونشره في عام ١٨٧٣م تحت عنوان «رحلة إلى جنوب شبه الجزيرة العربية» . أما بورتون فنشر أوصاف رحلاته في المجلة الجغرافية الملكية ، المجلد ٢٤ ، ثم في «وصف شخصي للحج إلى المدينة ومكة» (الطبعة الثانية ، لندن ، ١٨٧٥م مجلدين) . ويتضمن كتاب كارل أندريه «رحلات بورتون إلى المدينة ومكة وبلاد الصومال» معالجة لأبحاث بورتون .

ومن الآخرين الذين تعرفوا على مكة نذكر تينيت الذي ادّعى الإسلام وزارها في عام ١٨٦٣م وج. هاميلتون الذي لا أعرفه إلا عن طريق السماع . كما أن الضباط الفرنسيين الخمسة ، الذين اشتركوا في عام ١٨٢٤م تحت إمرة أحمد باشا مع الحملة المصرية ـ التركية التي انطلقت من جدة ضد عسير ، كان لهم اتصال بمكة حتى وإن لم يذكروا ذلك . وكان ت. كوتشي نشر في عام ١٨٦٦م من أوراق أحد الأطباء الألمان كتاب : (Plantae Arabicae in ditionibus Hedschas, Asyr et el Arysch) .

جاء اطلاعنا على إحصائيات الاستيراد والتصدير بفضل معلومات نايْمانس «البحر الأحمر ودول الساحل في مجال العلاقات التجارية في العام ١٨٥٧م» المنشورة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ، المجلد ١٢ . وكذلك بفضل رحلة فون مالتسان إلى جنوب الجزيرة العربية .

إن ما ذكرناه من المصادر هو أهم مصادرنا عن الحجاز منذ مائة سنة . وسنقدم أدناه عند الحديث عن والن ورحلته الثانية وأبحاث فيتسن شتاين تحديداً جغرافياً أكثر لمنطقة الحجاز .

أقام نيبور في جدة ولم يُقم في مكة والمدينة . ولذا فإن أخباره عن المدينتين المقدستين جاءت من السماع ، كما أن أشكاله الخاصة بالمساجد فيهما مأخوذة من رسومات الحجاج مما يجعلها بالطبع ، كما يذكر بوركهاردت ،غير دقيقة . أما بوركهاردت فإن معرفته باللغة العربية مكَّنته من إنجاز دراسات في بلاد العرب حول العادات الدينية وطريقة الحياة . كما استطاع من خلال أدائه لشعائر الحج إعطاء وصف للمدينتين المقدستين والطريق بينهما والمنطقة الواقعة من شرقي مكة حتى الطائف وتقاليد الحج والظروف الاجتماعية والسياسية السائدة في مهد الإسلام . وهذه الأوصاف تميزت بدقة متناهية بحيث لم يكن في وسع بورتون ـ كما يذكر فون مالتسان ـ إلا إدخال بعض الزيادات عليها ولكن دون اللجوء إلى تصحيح اي معلومة فيها .

يتميز الحجاز بشدة الحرارة والجفاف والجدب . والموقع الذي يثير اهتمامنا في رحلتنا في الحجاز هو الحرم المكي لأنه كان مركز دعوة النبي محمد (ﷺ) ولأنه ظل المركز الفكري والديني للمسلمين على مر العصور . ويوجد حاليًا ١٠٠ مليون شخص يحملون القرآن كتابًا مقدسًا لهم يهتدون به في أمور الدين والدنيا . ويصل آلاف من الحجاج سنويًا من الأرجاء البعيدة الممتدة من السودان إلى هندكوش تدفعهم قوة غريبة إلى هذا المكان وتحركهم فكرة عبادة الله كما أمر بها النبي محمد (ﷺ) . وهذه الفكرة لا يزال لها الاثر المدهش نفسه الذي يحرّك جماهير الناس سنويًا دون الالتفات إلى تعب أو نصب أو حرمان أو إلى موقع مكة الصحراوي .

تقع الحدا التي مرّ بها بوركهاردت وبورتورن في منتصف الطريق بين مكة وجدة . وعند الحدا يتفرع الطريق إلى طريق يذهب إلى مكة وطريق آخر يؤدي إلى

الطائف . وعلى طريق الطائف يجتاز المرء عند وادي الشميسي محاجر مرمر شهد على وجودها بوركهاردت الذي سار عدة مرات على الطريق الممتد من جدة إلى مكة والذي يبلغ طوله من ١٢-١٣ ميل ألماني (٥٠ميل إنجليزي) . وعموما تتصف المنطقة بأنها جدباء ؛ ويوجد عند الحدا بعض النباتات من النوع الجيد وبعض الأكواخ المتناثرة التي يسكنها أهل المنطقة .

ا ـ مكة

يوجد أمام المسجد الحرام في مكة ميدان عام كبير . ومع أن الصهاريج تجمع مياه الأمطار فإن مياه الشرب قليلة وتتدفق مياه بئر زمزم الشهيرة الموجود ة في باحة المسجد الحرام بغزارة . أما أنبوب المياه الممتاز الذي مدّه هارون الرشيد ووسّعه السلطان سليم الثاني والذي يبلغ طوله مسافة ثماني ساعات ويمتد من جبل عرفات ويستخدم لجلب مياه الشرب العذبة فإنه كان يحتاج للاصلاح في ايام زيارة بوركهاردت لمكة . وعلى هذا الأنبوب أنفقت المحسنة الكبيرة زبيدة زوجة هارون الرشيد ٥ ملايين درهم . وقبل مجيء السلفيين كان الاشراف يبيعون الماء في مكة باسعار عالية .

في أثناء شهور الحج تتحول شوارع ودروب مكة إلى بازارات مملوءة بالحيوية تُعرض فيها أقمشة الكشمير وأشغال المصوغات الدقيقة والتوابل الهندية والنراجيل الفارسية والبخور الحضرمي والبفت القطنيَ الإنجليزي . وتتم عمليات الشراء بعد مساومات تجد ترحيبًا من جانب التجار الحجاج والتجار من أهل مكة .

توجد قلعة تشرف على المدينة وأحيائها التي يبلغ عددها ٢٦ حيًا . وقد يكون المناسب في هذا المقام وصف ملابس العرب من ذوي الرزق الموفور . غطاء

الرأس هو الكوفية المربعة الحمراء الداكنة المشغولة من القطن والحرير ولها أطراف حريرية طويلة . وإذا ما طويت الكوفية على شكل مثلث فإنها توضع على الرأس وفوقها العقال المصنوع من الصوف . ويلبس المرء على الجسم قميصًا قطنيًا طويلاً ذي أكمام ضيقة وفوقه سترة بأكمام مصنوعة من شعر الجمال أو خيوط أخرى ؛ وتسمى هذه السترة العباءة . ويحمل العربي في حزامه خنجرًا قصيرًا يسمى الجنبية وتتدلى من كتفيه بندقية وسيف ويحمل في يده عصا تسمى مشعاب أو حربة لقيادة الجمال . أما البدوي فحاله أبسط من هذا الحال .

في غير أيام الحج يبلغ عدد سكان مكة ما بين ٣٠ و٤٠ ألف نسمة ، والموقع المركزي في مدينة مكة هو الكعبة . وكان هدف التوجه إلى مكة هو العبادة وأيضًا حضور سوق عكاظ وإلقاء قصائد الشعر في هذا السوق الذي كان يقع على الطريق من الطائف إلى اليمن .

تقع الكعبة في وسط المكان الذي يحيط به أروقة من أعمدة متشابهة من المرمر أو الحجارة ترتفع نحو ٢٠ مترًا وعليها عدد من القباب . والكعبة نفسها بناء طوله ١٨ مترًا وعرضه ١٣ مترًا وارتفاعه ٤٠ مترًا (وفقًا لبيانات فون مالتسان) وله باب فضي يرتفع ٧ أمتار عن الأرض . وبالقرب من الباب المذكور يوجد الحجر الأسود ، ويغطي بناء الكعبة قماش أسود ويتشرف سلطان القسطنطينية بتجديده سنويًا .

يوجد في ساحة المسجد الحرام بئر زمزم الذي يتصف بوفرة مياهه وفضله لأن إسماعيل عليه السلام عثر عليه في الصحراء عندما كانت أمه هاجر تتنقل بيأس من مكان لآخر بحثًا عن الماء . ومن أجل تذكر هذه الحادثة يجب على الحجاج السعي في هذا المكان سبع مرات .

أثناء موسم الحج يرى المرء في أوقات الصلاة ما بين ٦ و٨ آلاف شخص قادمون من أقاصي الأرض يحيطون بالكعبة راكعين وساجدين وطائفين . وهذا المنظر يأخذ بشغاف القلوب حتى الباردة منها . ويقول بورتون : « كنت في بلدان كثيرة وشاهدت فيها احتفالات دينية كثيرة ولكني لم أتأثر بها بقدر ما تأثرت بالشعائر الدينية في مكة » .

بعد تلك الساعات المملوءة بالخشوع ينتشر الناس في المكان المقدس ومن بينهم التجار مع سلعهم والحجاج مع حقائبهم والمرضى والأطفال الذي يكثرون الصراخ ببراءة في أرجاء المكان.

وفي كل أوقات النهار يشاهد المرء أناس يقرأون القرآن في الأروقة . وطوال إقامتهم في مكة يقيم الحجاج الفقراء القادمون من بلاد السودان (يسمون التكروري وهم أناس يحبون العمل) والهند في منطقة الحرم حيث يأكلون وينامون فيها ولكنه يحظر عليهم الطبخ.

في ساعات الظهيرة الحارة يأتي الكثيرون ليستظلوا تحت الأروقة . وكان بوركهاردت ،على سبيل المثال، استمتع في المكان الفسيح هناك بنسيم المساء العليل الذي يستمر حتى وقت متأخر من الليل . وفي الليل أيضًا تطوف جماعات من الحجاج حول الكعبة ومعهم المطوف الذي يعتبر مرشدًا دينيًا يساعد الحجاج على حُسن أداء شعائر الحج . وعند الأروقة توجد مدرسة يتعلّم فيها الأطفال بسكون وأدب . أما العلماء من أهل مكة فيلقون بعد الظهر مواعظهم الدينية في الناس.

يوجد في الحرم تسعة عشر بابًا (حسب بوركهاردت ١٨ بابًا) وسبع مآذن . وبينما كان الدخل الذي كانت تحصل عليه مكة في السابق من حجاج الهند وتركيا

ومصر كبيراً فانه انخفض في الوقت الحاضر . ولا يزال بعض الناس يكسبون عيشهم من تقديم خدماتهم للحجاج . وبعد انتهاء أشهر موسم الحج يحل الهدوء بالمدينة وبالمسجد الحرام .

تمتد شعائر الحج إلى خارج مكة وبالذات إلى وادي منى وجبل عرفات حيث يستمع الناس إلى الخطبة ويقدمون الهدي من الخراف والجمال . ويبلغ عدد الناس الذين رآهم بوركهاردت من أعلى الجبل وهم يرددون « لبيك » نحو ٧٠ ألف شخص سمعهم يتكلمون بأكثر من ٤٠ لغة . وهذا العدد الذي هو أقل بكثير من مئات الآلاف الذين كانوا في الماضي، وخاصة في العهد العباسي ، يحجون إلى مكة من البلاد الممتدة من بورنيو وجورجيا إلى تمبكتو وتونغو وهم يحملون الهدايا من كل الأصناف والأنواع . وعندما حج آخر عباسي إلى مكة كانت قافلته تتكون من ١٢ ألف جمل ، أما المهدي فأنفق عند حجه في عام ٧٦٠م نحو ٣٠ مليون درهم . وعند كل محطة من المحطات الواقعة بين بغداد ومكة بنى المهدي بيوتًا جميلة تحيط بها حدائق غنّاء . وفي إحدى حجاته التسعة تكرّم هارون الرشيد بـ ٥٠ ألف دينار على أهل مكة والحجاج الفقراء . أما السلجوقي ملك شاه فأنشأ عندما حج إلى مكة في عام ١٠٨٨م أسواقًا وحفر آباراً في الصحراء وجلب المواد الغذائية وألغى الرسوم على الحجاج .

كان ذلك يختلف اختلافًا شاسعًا عنه في العقدين الأوليين من قرننا هذا . فأعداد الحجاج ازدادت في عام ١٨٣١م إلى ١٢٠ ألف نسمة . وتفيد الإحصائيات أن العدد كان في عام ١٨٧٢م نحو ١١٠ آلاف حاج .

يعيش أهل مكة في بحبوحة بسبب تدفق الحجاج على مدينتهم . ويفسر هذا حبهم للكسب وأيضًا تعليمهم العالي وثقتهم العالية بالنفس . وعلى الرغم مما يراه

أهل مكة كل سنة من الحماس الديني الذي يبديه الحجاج فإنهم لا يعتبرون في جملتهم مسلمون متعصبون .

تصل في موسم الحج إلى مكة قافلتين رئيستين يقودهما موظفون ذوو حسب ونسب ويرافقهما قوات تركية ومحاربون من القبائل العربية . وإحدى هاتين القافلتين هي القافلة السورية التي تجلب الحجاج من آسيا الصغرى والقسطنطينية ومن بلاد الرافدين والقوقاز والشرق الأقصى والأخرى هى القافلة المصرية . والعادة أن تمكث القافلة السورية ٢١ يومًا في مكة . ومن الطبيعي أن يحج كل عام سكان الجزيرة العربية نفسها القادمين من اليمن وحضر موت ونجد سواء كانوا بدواً أو فلاحين . وتأتي من اليمن قافلة خاصة تدعى كبسي نسبة إلى قرية بيت الكبس التي يكون شريفها قائداً للقافلة . وتحتاج القافلة من صنعاء إلى مكة ٤٣ يومًا من أيام الرحلات القصيرة جداً والتي أورد أخبارها بوركهاردت حسب رواية أحد حجاج قافلة الكبسي . ولا شك أن شق قناه السويس وتسيير البواخر البخارية والقطارات غيّر من تشكيل رحلات الحجاج بالمقارنة مع مثيلاتها قبل عشر سنوات .

٢ ـ المدينة

ليس من الضروري جداً توسيع الحج إلى مكة بالذهاب إلى المدينة المنورة (قبل الإسلام كانت تدعى يثرب) ولكن ذلك مستحب . ويصل المرء من مكة إلى المدينة المنورة في حوالي رحلة عشرة أيام مما يعني أن المسافة تبلغ نحو ٤٥٠ ميلاً . وتسير الطريق عبر منطقة عتيبة وزبيد وقبيلة حرب الكبيرة المتنفذة والتي يعمل بعض أبنائها في الزراعة وبعضهم بدو رحل . وتستطيع قبيلة حرب حشد ٥٠ ألف شخص مسلح تسليحًا جيداً .

إذا ما ظل المرء بالقرب من البحر فإن سلسلة الجبال يتراوح ارتفاعها بالقرب من الشرق ما بين ألفين وخمسة آلاف متر . ويسير المرء بالقرب من وادي خُليص ومدينة رابغ ومدينة مستورة عند جبل أيوب وعبر الجبل المهم جبل صُبْح الشديد الانحدار والكثير الشجر والوفير المياه والمخابىء الصخرية الوعرة . ويسكن الجبل قبيلة تحمل الاسم نفسه وهي متفرعة عن بني حرب والتي كان سلطانها أيام فيلشتيدت يدعي ابن الحسن . وهذا السلطان اشتهر بالشجاعة والذكاء وقوة الشكيمة مما أكسبه احترامًا في كل الحجاز وكان يهدد حاكم مصر الحاذق محمد علي . وإذا ما تابع المرء سيره فإنه يمر بمزارع النخيل الرائعة عند سوق الشرفة المشهور وذلك بعد ما يترك طريق الحجاج المصري بالقرب من بدر ويتجه إلى الاتجاه الشمال الشرقي . ومن سوق الشرفة يصل المرء إلى واد ضيق ثم يصعد إلى هضبة تقع المدينة المنورة في أوطأ نقطة فيها .

يعود الفضل في المعلومات التي لدينا عن المدينة المنورة وأحوالها في العقد الثاني والسادس من قرننا الحالي إلى بوركهاردت وبورتون . وكانت معرفة بوركهاردت بمحمد على وابنه طوسون الذي كان موجودًا في ذلك الوقت في المدينة قلّلت هنا ، كما قبل ذلك في الطائف ومكة ، من الأخطار التي تواجه هذا السويسري الجسور الذي لم يتمكن بسبب مرضه من زيارة هذا الجزء من الحجاز ثم الوصول إلى خليج العقبة واكتفى بدلاً من ذلك إلى الانتقال إلى مصر عبر ينبع . أما زيارة بورتون الذي لم يكن يتمتع بعلاقة مع الحكام المصريين أوالأتراك فكانت من الأعمال الجريئة التي تكللت بالنجاح . وكان بورتون جاء من ينبع إلى المدينة المنورة قاطعًا مسافة ١٣٠ ميلاً إنجليزيًا ، أي ٣٢ ميلاً ألمانيًا ، وقد أصابته الدهشة وتملكه الذهول عندما اجتاز طريق له شكل البوابة في الجبل البازلتي الأسود واضطر

إلى الصعود عليه ليجد أمامه فجأة مدينة النبي محمد (ﷺ) تضيء بالخضرة والحدائق بعد أن قطع طرقًا جدباء قاحلة.

عند الصعود من الساحل إلى الدرجات الجبلية يصبح الطقس أكثر قسوة، ويلاحظ المرء الكميات الوفيرة لمنتجات الأشجار المثمرة. وجبل صُبْح هو أقصى مكان في الشمال ويوجد فيه بلسم مكة. وكان بوركهاردت واجه آنذاك أمطارًا غزيرة ولكن المطر لم ينزل على الأجزاء العليا من الهضبة مما أتاح له أن يشاهد في المنحدر بدوا يتجولون في المنطقة. وعندما سأل إحدى البدويات الفقيرات أن تعطيه حليبًا من غنمها فإنها أجابته إلى طلبه ولكنها رفضت بإباء وفخر الحصول على مقابل لهذا الصنيع.

المدينة المنورة مدينة لطيفة وبها شوارع مرصوفة ولا يوجد فيها كلاب (وفقًا لبوركهاردت) والأحياء أكبر من الجزء الرئيس البيضاوي وعدد السكان نحو ١٦ ألف نسمة. والتجارة في المدينة المنورة أقل منها في مكة لأن القافلة السورية هي وحدها القافلة المضمونة ولكنها تبقى لوقت قصير ـ مرتين كل ثلاثة أيام ـ، أما القافلة المصرية فيمر أجزاء منها فقط في المدينة. ولا يوجد بالمدينة حجاج كثيرون وإنما بعض الإفريقيين من شمال غرب إفريقيا (المغاربة) والسودانيين.

لايوجد نقص في المياه في المدينة المنورة. وتتزود المدينة من مياه الينابيع الوفيرة بالمياه أومن الصهاريج أو من القناة الممتازة التي توجد على بعد ساعة من الناحية الجنوبية وعلى عمق مترين ونصف تحت الأرض. وهذه المنشأة بناها السلطان سليمان ابن سليم الأول في عام ١٥٦٥م. وبسبب الأمطار الكثيرة والغزيرة فإن المناطق المحيطة بالمدينة تواجه فيضانات تجلب لها الثمر والنماء.

يحيط بالمدينة سور حجري بارتفاع ٣٥ متراً وبسماكة ملحوظة وبه ٣٠ برجًا من ناحية الشمال غرب . وتنقسم البنايات والحدائق إلى ملك خاص أو وقف للمسجد. ومن شروط الحياة المريحة في المدينة المنورة امتلاك حديقة مع بيت ريفي جميل بالقرب من أشجارالنخيل وجدول وحوض ماء . وكما في مكة تبدأ الاحتفالات العائلية في الحدائق الواقعة على مشارف المدينة بعد انتهاء أشهر الحج وما تجلبه من عوائد مادية . ويشتهر أهل المدينة المنورة بحبهم للنظام ويستفيدون كثيراً من الحجاج . ويروي بوركهاردت بأن الناس هنا يتسابقون قبل دفن أحد الأموات على حمل جزء من نعشه ، أما النساء فيظهرن حزنهن بارتداء الخمار الاسود ووضع الحناء الهندية على أيديهن ولكن دون أن يُسمع لهن صوت ولولة وعويل .

مسجد النبي هو أهم موقع في المدينة المنورة وهو المكان الذي يقصده الناس فيها . والحرم في المدينة اصغر من الحرم المكي ولكنه يشبهه في وجود الأروقة والقبة ، وللحرم خمس مآذن وبه بعض الأبنية خارج المنطقة المغلقة وشكله الحالي يشبه ما كان عليه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي (١٤٨٤م) . وفي أقصى الرواق الشمالي ـ حسب بورتون : في أقصى الجنوب الشرقي ـ يوجد قبر النبي (ﷺ) الذي لا توجد قضبان تحيط به أو غطاء يغطيه . وإلى جانب هذا القبر توجد قبور خلفائه الراشدين أبو بكر وعمر وابنته المحبوبة فاطمة زوجة علي (رضى الله عنه) .

تدوم زيارة الحرم في المدينة نحو نصف ساعة والمصلون أقل عدداً من المصلين في الكعبة لأنه لا توجد أشهر حج خاصة بالمدينة المنورة .

على بعد ثلاثة أرباع الساعة إلى الشمال من المدينة المنورة يقع جبل (أحد) الذي ينعزل قليلاً عن السلسلة الجبلية واشتهر بسبب المعركة التي عُرفت باسمه ودارت بين جيش المسلمين والمشركين . وفي شهر يوليو ولمدة ثلاثة أيام يزور أهل المدينة ظهر الجبل الذي يبلغ طوله نحو ساعتين ويتمتعون هناك بالمناظر الطبيعية الجميلة .

تتصف جدة ، التي تقوم بوظيفة الميناء لمكة ، بالثراء ، وكان بوركهاردت وصف بالتفصيل التجارة والصناعة في المدينة وتبعه في ذلك كثيرون . وفي عام ١٨٧٠م وجد فون مالتسان في المدينة ٢٠٠ تاجر كبير من العرب (في الغالب حضارمة) و٢٥٠ من الهنود . وتوجد أهمية جدة ـ الأصح القول كانت توجد لأن مركز المدينة التجاري أصابه الضعف بسبب السويس وعدن وسواكن ـ في موقعها كمكان لعبور التجارة بين مصر والهند من ناحية واليمن (البن) وحضرموت (البخور وثمار الصبر) والخليج الفارسي والهند من ناحية أخرى . وفي الوقت الحاضر تبلغ قيمة الصادرات الأوروبية إلى جدة بالمتوسط ٨٠٠ ألف تالر والصادرات المصرية أكثر من مليون تالر . كما يوجد أيضًا في جدة بضائع مستوردة من الهند .

بيوت جدة جيدة ومبينة في جزء منها بالحجارة الكلسية المرجانية ولديها واجهات ترتفع بلطف . ويعتبر توفير المياه صعبًا في جدة . ويكفي نصف الصهريج الذي امتلأ بالماء من هطول المطر في شهري نوفمبر وديسمبر ما بين ٧ و ٨ أشهر ؛ أما الماء القليل الذي يبقى لفصل الصيف فإنه يُباع غالياً ، على سبيل المثال يصل ثمن حاجة القنصل البريطاني اليومية من الماء (حمولة جمل) نحو تالر وثلث التالر يوميًا . ولو لم توجد الأوقاف ومعها السقائون (بالإضافة إلى ماء الينابيع المؤقتة والسبيل) لعانى الفقراء من قلة المياه .

إلى الجنوب من جدة يتبع للحجاز الليث والقنفذة (تسمى كمغدة عند فون مالتسان) ، وهما المنطقتان الفقيرتان الواقعتان في تهامة في السهل الساحلي الحار؛ في عام ١٨٧١م زارفون مالتسان القنفذة . وكان لهذه المنطقة بعض الأهمية عند تنفيذ غزوات المصريين ضد عسير .

وأهم القبائل البدوية في الحجاز من الشمال إلى الجنوب الحويطات (في بلاد ميديان) وعُقبة وبلى وجهينة التي سكنت هناك أيام الاصطخري ، أي قبل ١٠٠٠ سنة ، حسب ما ذكره البكري (كتاب فوستن فيلد ، المساكن والتجوال ، ص ٣٣). ونذكر أيضًا بنو حرب وعشائرهم الكثيرة ، على سبيل المثال بنو عوف وبنو صبح وبنو عتيبه وزبيد في موقعهم الرئيس خُليص . ويقدم بوركهاردت وفيلشتيدت ووالن (انظر أدناه) معلومات تفصيلية حول هذه القبائل .

يتبع أيضًا للحجاز من الناحية السياسية الساحل الممتد بالقرب من حلي جنوب القنفذة والبلاد الواقعة من جنوب شرق سلسلة جبال الكورة إلى وادي بيشة . وبسبب قرب هذه المناطق من سويسرا العربية ، اي عسير الجبلية ، ولأن المعرفة بها بدأت عبر عسير فإن المعلومات الخاصة بها موجودة في الفصل الآتي الذي يتحدث عن عسير .

***



الفصل الثالث

عسير

تتصف عسير بأنها حلقة الوصل بين الحجاز واليمن . ومعرفة العلوم الأوروبية بهذه المنطقة معرفة ليست قديمة وكانت بدايتها مع غزوات والي مصر محمد علي التي كانت تهدف إلى تأسيس مملكة عربية ؛ وهو المشروع المثير للدهشة ولكنه لم يحقق النجاح المنشود . وهذه الغزوات زودتنا بأسماء وصفات المواقع المهمة لهذا الجزء من الجزيرة العربية الذي لم يكن قبل ذلك معروفًا تقريبًا . وكان بوركهاردت حصل في عام ١٨١٤م من أحد الحجاج الفقراء الذي وصل من صنعاء إلى مكة على معلومات عن الطريق الذي يمتد من صنعاء إلى الطائف. وهذه المعلومات تأكدت لاحقًا عبر زيارات شخصية. والمعلومات الأهم جاءت على أي حال من الأطباء أو الضباط الفرنسيين الذين شاركوا المصريين في غزواتهم لعسير . وأحد هؤلاء (في عام ١٨٢٤م) هو الطبيب الجنرال في الجيش المصري المُعسكر في الجزيرة العربية شيدفو واللفتنانت كولونيل ماري الذي أخذ الأكاديمي الفرنسي جومارد ملاحظاته وعالجها معالجة علمية في كتاب « دراسات جغرافية وتاريخية حول الجزيرة العربية » . كما أنه وضع خارطة لعسير (باريس ١٨٣٩م). علاوة على ذلك يجدر ذكر الضباط الفرنسيين المرسلين من القيادة العسكرية الفرنسية وهما جالينير وفيريت اللذان استغلا فترة إقامتهما في جدة لكي يرسما خارطة جديدة

للمنطقة الجبلية والساحلية الواقعة جنوب الحجاز . وقد استفاد الاثنان في ذلك من ملاحظاتهما الشخصية ومن دراسات شيدفو وماري . وهذه الخريطة هي التي استفاد منها كارل ريتر في بحثه المنشور في مجلة الجمعية الجغرافية ١٨٤٣م . عدا عن هذين الضابطين نذكر رئيس أركان جيش المصريين في عام ١٩٢٤م المدعو بلانات الذي رسم، حسب تقارير الجيش وطرق الزحف العسكري، خريطة وقدّم التوضيحات اللازمة لها في " Histoire de la régénération de l'Egypte " وفي «Lettres `a M. le Comte de Laborde» . وفي ما يتعلق بعام ١٩٢٤م نذكر العالمين الألمانيين إيهرنبرغ وهمبريش اللذين قاما باستطلاعات علمية بالقرب من القنفذة. كما أن تاميزيه مهم أيضًا. وكان تاميزيه وصل في عام ١٩٣٤م، كموظف مدني مع الجيش المصري المتجه من الطائف إلى عسير، إلى الناحية الشرقية لسلسلة الجبال العالية، أي المجهولة والأكثر صعوبة للارتياد . ويسمى تقريره "Voyage en Arabi, séjour dans le Hijaz, campane d'Assir" . وبين الحين والآخر كان فرينزل يتكلم عن عسير . وقد تمكن كارل ريتر من الاستفادة من تقارير القناصل النمساويين بفضل مساعدة النبيل النمساوي شتورمر له. ولذا فإنني اعتمدت على ريتر حتى عندما استشهدت بالدراسات الفرنسية المذكورة آنفًا .

تمتد سلسلة الجبال الشاهقة ، السروات (جمع سراة) ، بموازاة الساحل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي . ويمتد من الجبال في اتجاه الشرق والغرب وديان وشعاب وسيول مثل سيل علي ووادي تربة وسيل طراد الذي يسيل في بحيرة ورَدَة وسيل غني ووادي ثاني ووادي بيشة ووادي شرانة الذي يتميز بالطول والفخامة والجمال الفائق بالمقارنة مع الوديان الاخرى .

يقطن آل بقم عند نبع وادي تربة ويسكن بنو فهم إلى الغرب من تهامة . وفوق طراد تتصف منطقة عقيق بأنها أكثر سخونة من الطائف؛ وتنبت هنا أشجار الصبار

والسرو . إضافة إلى ذلك شاهد تاميزيه بعد الطائف نباتات الميموزا (الست المستحية) والكرز وبعض الأشجار الأبرية . وتشتهر مدينة تربة ، مثل مدينة الطائف، بحدائق النخيل وبوقوفها البطولي في عام ١٨١٥م ضد المصريين . ويوجد هنا ممر مهم من نجد إلى اليمن تقع شرقي مراعي البقرة. وإلى الجنوب من تربة وشرقي سلسلة الجبال الكبيرة توجد مدينة جاني التي تسكنها قبيلة سبيع . ومن تربة فقط تسير بانتظام قوافل إلى مكة وجدة . وبالقرب من تربة كان يوجد عدد من الآبار المهمة والقلاع المربعة التي ربما كانت وظيفتها حماية طريق القوافل الذي يمر هنا قادمًا من بغداد وأيضاً حماية طرق المواصلات التي تتقاطع هنا في اتجاه نجد واليمن والحجاز.

تتصف النساء العربيات في وادي ثاني بالجمال الملفت للنظر وبصفاء البشرة والزينة اللطيفة وحب المعرفة والعمل . وإلى الشمال المباشر من هذا الوادي شاهد تاميزيه بقايا سور قديم أكد أحد الضباط المصريين أنه كان يوما ما يمتد من بغداد إلى مكة للإعلان عن إشارات الطريق الإرشادية وتقديم حماية لقوافل الحجاج بحيث «يتمكن العميان أيضًا من أداء فريضة الحج» .

على الجانب الغربي في الجنوب الأقصى يوجد السيل الوحيد العريض والعميق في المنطقة وهو سيل ريم في رجل الماء. وعلى الناحية الأخرى من الجبل في الشرق توجد حدود منطقة عسير الجبلية التي تتاخم شرقًا وادي شرعان وينضم إليه شمران وزهران والمدينة المهمة مخاوة . وتقع هذه المدينة في منطقة زراعية خصبة ولها صلات نشطة مع مكة ويسكنها بنو علي وبنو زيدان الذين سلموا قيادتهم للرئيس العسيري تامي . وهذه المناطق كثيرة الجبال وتمتد إلى داخل جزيرة العرب

ووادي نجران حتى الجنوب . ويمتد الطريق القادم من المدينة اليمنية المهمة صنعاء إلى مكة شرقي السلسلة الجبلية الرئيسية .

تنحدر السلسلة في اتجاه البحر الأحمر انحداراً شديداً وهي كثيرة الصخور وشاهد شيدفو عليها الثلج في شهر أبريل . أما المنحدر الشرقي فانحداره أقل حدة وتغيب شعابه في الرمال .

يشير شيدفو إلى وجود ١٦ إقليماً جبلياً بين الطائف وعسير . وبعد الطائف يصعد المرء من هذا الموقع على جبل كوره حتى علو ٥٠٠ متر إلى المضيق الجبلي «وفقاً لـ شيمبر ٨٠٠ متر» على الجانب الجنوبي . وعلى رأس الكورة رأى بوركهاردت منظراً رائعًا لايقل روعة عن المناظر في لبنان، فبين قطع الغرانيت الضخمة تنبت كل الأشجار المثمرة والعنب واللوز . أما الهواء فهو منعش ويميل إلى البرودة وتوجد جداول ماء جارية ومنظر متسع بلا حدود يرى فيه المرء تهامة المملوءة بأشجار المومزيا الخضراء الداكنة والمساحات الرملية الفاتحة (السهل الساحلي) وبعد ذلك البحر . ويحيط بكل حقل سور صغير وينبت فيه القمح والحبوب والبصل بكثرة . وماء الكورة مشهور في كل أرجاء الحجاز . وتتصف بيوت هذيل بالنظافة ويوجد فيها قطع السجاد والأكياس الصوفية والجلدية والأطباق الخشبية وآنية القهوة الفخارية والبندقية التي يحرص أهل البيت عليها بعناية فائقة . ويبلغ طول المنطقة ثلاثة أميال إنجليزية وتركها بوركهاردت وهي في ذاكرته كأجمل ما تكون المناظر الرائعة .

حتى يمكن الوصول إلى الطائف اضطر بوركهاردت إلى النزول إلى المنطقة التي يسكن فيها بنو ثقيف منذ عهود طويلة . ومن هنا تبدأ وديان خصبة تصل حتى اليمن ويفصلها عن بعضها البعض جبال ناتئة .

يجدر الإشارة إلى أن بوركهاردت كان في الطائف عند محمد علي الذي كان ينطلق في عام ١٨١٤م من هذه القاعدة في عملياته ضد العسيريين المتّحدين مع السلفيين . وكان بوركهاردت وصله قبل ذلك ببعض الوقت نبأ زحف الحلفاء إلى باريس ونبأ ذهاب نابليون إلى إلبا . والواقع أن الباشا محمد علي ربما رأى في الجوابة الجسور أحد الجواسيس الإنجليز . وفي حديث مع بوركهاردت قال محمد علي : « مصر ضرورية لإنجلترا » . ومهما يكن فإن الباشا محمد علي عامل بوركهاردت معاملة حسنة جدًا .

كانت مدينة الطائف سوقًا لكل قبائل الجبال وقد وصل عالم النباتات شيمبر وأيضًا تاميزيه إلى منطقة الطائف عبر وادي فاطمة شمال مكة وعبر الزيمه بعد الالتفاف على مضيق كورة . وعند الزيمه شاهد تاميزيه أطلالاً بارزة ، أما عالم النباتات الألماني فداهمته في هذا المكان العالي بروق ورعود . ومع ذلك فإنه أمعن النظر في طبيعة البلاد الألبية وفي الطائف وما حولها . وكان يسكن هذه المدينة ذات القلعة المتينة القائمة على صخرة غرانيت نحو ٥٠٠٠ نسمة . وشهدت المدينة ازدهاراً بعد أن استولى عليها عثمان المذيفي مع السلفيين في عام ١٨٠٢م وظلت تحت حكمه حتى عام ١٨١٣م .

يملك أهل مكة معظم حدائق الطائف وهي تخدمهم كمصيف . ومع أن التمور غير موجودة فإن كل أنواع الفواكه التي تنبت في جنوب أوروبا موجودة هنا بكثرة ملحوظة . وتوجد أربعة مجاري للمياه في القناطر وقد يبرد الجو لدرجة تسمح بتشكل الثلوج . ويرى المرء في المنطقة غزلانًا وقرودًا وغربانًا وأيضاً أفاعي وأنواعًا كثيرة من الحراذين .

كما هو الحال مع آل ثقيف فإن جيرانهم بنو حارث استوطنوا هنا منذ زمن طويل ، أي في أوقات هجرة القبائل البدوية (قارن ، فوستن فيلد وأبوعبيد البكري) وينقص بنو حارث الخيل ولديهم القليل من الجمال والكثير من الحمير والبقر .

تتميز بعض المناطق الجبلية الستة العشر المذكورة آنفًا بمنتجاتها وزراعتها (على سبيل المثال بلاد زهران) وبعضها الآخر بقلة خُصوبة أرضها وقلة الزراعة فيها (على سبيل المثال بلاد شمران) . وكان بوركهادرت حصل من الحاج الكبيسي المذكور آنفًا على معلومات وافية حول عدد من المواقع التي تقع على طريق الحجاج الممتد من اليمن . وأهم هذه المواقع التي تعرّفنا على بعضها وسنتعرف لاحقًا على بعضها الآخر هي عند بوركهاردت : مكر والصور وزهران على بعد رحلة يوم من تلصور والمشايعة (خريطة كيبرت : مشينة) ورغدان ووادي سدوان من أهل العريف ودهكان (كيبرت : دهبان) القحطان والعرين .

الاقليم الأغنى ابتداء من جهة الشمال هو وادي بيشة الذي يبعد يومين سير شرقي السلسلة الرئيسة ويعتقد المرء أنه مفتاح للمنطقة الجنوبية . ويعود هذا الاعتقاد إلى قيام المرء قبل الصعود على الجبال العالية بالاستراحة في الوادي لآخر مرة . وفي قاع الوادي تكثر جذوع أشجار النخيل التي ذكرّت تاميزيه بوادي النيل الأخضر . وحسب بوركهاردت يبلغ عدد قرى بنو سلام ٦٠ قرية يسكنها مزارعون مستقرون . والمناطق الواقعة بعد هذه القرى وبالذات بعد وادي دواسر أو الصحراء الكبيرة في اتجاه داخل الجزيرة العربية ظلت حسب علمنا مُغلقة على الأوروبيين . وسأتعرض لوادي بيشة عند الحديث لاحقًا عن وادي الرمة . وفي أيام تاميزيه كانت السلطة في يد ثلاثة شيوخ لهم حقوق متساوية . وفي قرية من القرى الكبيرة كان

يوجد جامع وبه مدرسة ، وفي مكان آخر كان يوجد سوق ثلاثاء يؤمه ناس كثيرون. وكانت البيوت المبنية من الحجر وجذوع النخيل مثيرة للإعجاب . وكانت القلعة المربعة المشهورة وهي قلعة بيشة التي تحيط بها قرى كثيرة مبنية على تلة واطئة فوق حقل من النخيل ولها أسوار مزدوجة متينة ، بسمك سبعة امتار وعلو ٢٠ مترا وممر يحيط بها من الداخل وقاعة بلاط بطول وعرض ٨٠ متراً وبدون بوابة دخول وإنما فتحات عالية يُسحب المرء إليها بواسطة حبال من سعف النخيل . وكان لقلعة بيشة في عام ١٨٦٢م (حسب بلغريف) صلات نشطة مع عاصمة السلفيين الرياض ، وفي ذلك الوقت انتقل أحد الأمراء النجديين من الرياض إلى بيشة لزيارتها.

عند التقدم في الوادي في اتجاه الجبال العالية كان يوجد نخيل وبعض الأشجار الأبرية وأشجار السرو. وكانت الآبار الكثيرة التي تحيط بها المراعي تسقي حدائق المساكن الريفية وتشرب منها قطعان الأنعام الكثيرة العدد . وكلما كان المرء يواصل الصعود كان يجد بيوتاً من الحجارة والطين تتكون من طابقين وتتمتع بحماية جيدة في مواجهة مياه المطر المتساقطة من الجبال.

ترتفع إلى الجنوب من وادي بيشة جبال حادة وجدباء تخترقها أودية مجدبة قليلة . وفي النهاية ترتاح العين والنفس بوجود أودية مزروعة . وفي وادي حمام تشبه بيوت القرية الحصون الصغيرة مما قد يشير إلى وجود شجارات بين السكان : فالأسوار المبنية في الصخر الصوان لها مداخل لا يزيد عرضها عن متر واحد وتغلق بجذوع النخيل . وعلي أي حال فان الأرض مغطاة في كل مكان بالنخيل والذرة والعنب والبرسيم والتين والقطن والتي تحصل على الرطوبة المطلوبة من مجاري المياه الاصطناعية . ودرجة الحرارة هنا تقل عن مثيلتها في المناطق الأخرى وهطول المطر أكثر منه في وادي بيشة.

كانت الحدائق مملوءة بأحسن أشجار العنب والخوخ واللوز والشجيرات الصغيرة . وهناك شاهد المرء العصفور الجميل الذي يشبه عنقود العنب « حمام » ذو البطن الأصفر والظهر الأخضر والجناحان الأزرقان السماويان والمنقار الأبيض، كما توجد عصافير بأجنحة سوداء . والطبيعة الجميلة نفسها يجدها المرء في وادي جنفور (انظر أدناه) . وعند النهاية الجنوبية لشرعان توجد خميس مشيط حيث خاض أهل عسير معركة دموية ، ولكن دون نتيجة إيجابية، ضد المصريين الذين أجبروا القلعة على الاستسلام (انظر أدناه) . وكانت الأمطار الغزيرة أعطت الأجواء برودة في أيام الزحف والمعارك . ونأتي في مايلي بتفصيل أكثر على ذكر مندر الواقعة غرب الخميس وأيضًا على ذكر الغَدَّة . وتظهر الغَدَّة على خارطة كيبرت باسم جدة التي هي في الواقع بعيدة عن مندر . وبالقرب من الغدّة يوجد مضيق من المضيقين الوحيدين اللذان يؤديان من المنطقة الألبية لعسير إلى تهامة . واسم المضيق الأول زمح ، أما المضيق الثاني فيوجد في الشمال الغربي بالقرب من محايل .

ولكي نكمّل وصفنا للمنطقة فإننا نلجأ لتفصيلات طبوغرافية استقيناها من أخبار الغزوات المصرية التي حدثت في الأعوام من عام ١٨٢٤م إلى عام ١٨٣٣م وعام ١٨٣٤م .

يسمى الجبل الواقع في أقصى جنوب سلسلة الجبال والممتد إلى الشرق جبل تثليث الذي يبعد ٨٠ ميلاً (!) ألمانيا على بعد مستقيم من الغَدَّة و١٥ يوم سير من الطائف . وإلى جانب هذا الجبل يرتفع غربًا شعب أو وادي شرعان . ويجري سيل شرعان من الجنوب إلى الشمال يمينًا إلى سيل بيشة . وإلى الجنوب من شرعان

حيث يسيل من الشرق أيضًا وادي زبران تمتد سلسلة جبال مشيط وإلى الغرب منه جبل ساريك وحجيلة ومحالة وجبل تور مع العكاس التي هي قلعة للتامي . وإلى هذا الموقع وبعد جبل تور وصل المصريون في غزوة ١٨٢٥/ ١٨٢٦م في تسعة أيام انطلاقًا من الساحل عبر وادي ريم الذي هو مجرى نهر عسيري وحيد يخترق سلسلة الجبال في اتجاه الغرب ويؤدي من جبل تور إلى مندر ، أي يجب البحث عنه بين تور في الغرب ومشيط في الشرق .

جهّز محمد على حملة عامي ١٨٣٣/ ١٨٣٤م بمهارة ولكن قادة الحملة أداروها بطريقة رديئة . وكان الهدف من الحملة احتلال غَدَّة وسيجا المنيعتين وتحويلهما إلى قلاع ضد العسيريين . وهذه الحملة اقتربت من الشمال قادمة من الطائف عبر وادي تربة نحو مسيرة ستة أيام حتى العقيق التي تبعد خمسة أيام سير عن وادي بيشة . وفي الشمال واجه المرء قمم جبال ناتئة وسار حتى قلعة بيشة عبر ثلاث قرى هي نمران وروشن كبير وروشن صغير . ومن هنا يتحول وادي بيشة إلى شعب يفصل بين مجرى النهر الشمالي الأسفل ذي النبت الوفير من النخيل والحبوب والفواكه ومجرى النهر الجنوبي الأعلى ذي السهل الرملي الذي تنبت فيه الأشجار الأبرية وأشجار الصنوبر . وتوجد على حافة الضفة اليمنى العريضة بعض أشجار النخيل والآبار وأشجار الرعي والبيوت الريفية . والقرية الأولى التي لها برج في الوسط وثلاث قلاع وآبار وبيوت من الحجارة والطين وجامع مربع هي قرية سراع . والقرى الأخرى هي المدرا والبايرة وتيارة (فيراي على خريطة كيبرت؟) .

على الناحية الأخرى من أحد الممرات الضيقة تقع قرية الملاحة التي تتصف بأنها أبرد من وادي بيشة وتربتها مملوءة بالحصى وحولها قطع حجارة غرانيتية كثيرة مبعثرة وبعض شجيرات الميموزا والأخشاب والأعشاب ذات الرائحة الزكية . كما

توجد إلى جانب اشجار النخيل البعيدة ثلاث آبار في وادي الخضرا . ومن هنا يدخل المرء إلى وادي المعدن الذي هو جزء من وادي أرجاب الأكبر . وهنا كانت توجد أشجار النخيل والتين ومياه وفيرة . وفي حوالي العام ١٨٣٠م هاجر الأهالي المنطقة بسبب قلة سقوط الأمطار ؛ وفي وقت لاحق حدثت فيضانات عارمة اقتلعت معظم أشجار نخيل الوادي من جذورها .

في سهل خلايل يشير كوخ إلى الحدود بين الحجاز وعسير . ويمتد طول السهل ٤ أميال ألمانية وهو قليل العشب . ويبدو أن ريتر أخطأ عندما اعتقد أن تاميزيه يقصد بكلمة سهل كلمة سيل . وعبر قرية خلايل يوجد طريق يؤدي فيما بين كهوف جبلية إلى الوادي الخصب والذي يسمى وادي حمامة ذو المحطتين اللتين تحملان اسمي المعملة صغيرة والمعملة كبيرة . وحيث يوجد الوادي الذي ينقسم إلى قسم مجدب ورملي وقسم خصب ومُعشب ترتفع تلة محصنة تنبت عليها أشجار العنب والتين . وكان سكان هذه التلة هجروها في الماضي .

بعد ذلك وصل المرء إلى الوادي المهم ، وادي شرعان (انظر أعلاه)، ثم عبر سلسلة جبال إلى وادي غنفور البيضاوي الكبير الذي تنبت فيه أشجار الصنوبر الناضرة . وتوجد على ذروات الجبال أسوار تحصين، كما يوجد في كل مكان أعداد من القبور الحجرية التي تشهد على معارك حدثت منذ سنوات طويلة ولا نعرف عنها شيئًا . وعلى بعد ميل ألماني واحد جنوبًا تقع خميس مشيط التي تضم أكثر البيوت عددًا بعد الطائف . وعلى الناحية الجنوبية من الجبل توجد قلاع مربعة لها اسوار بعلو ٤٥ مترًا ومبنية بحجارة حمراء وبيضاء وبها سلالم حلزونية مصنوعة من جذوع النخيل . ويوجد حول البرج الرئيس حائط أرضي بعلو ١٨ مترًا مع أبراج

في الزوايا الثلاثة . وكان يوجد في هذه القلاع آنذاك حامية تتكون من ٣٠٠٠ رجل عسيري .

تقع قرية منادير التي يصلها المرء بعد أن يقطع طرقًا ملتوية على بعد رحلة يوم واحد في اتجاه الغرب . ويوجد في الموقع قصر بدو جميل وتقع على مقربة منه قرية وحصن زيفا . وإلى الغرب من خميس مشيط على الناحية الأخرى من الوادي الوفير المياه والمحاط بالجبال يصل المرء عبر قرية وسيل أجالة الذي يتدفق فيه مشيط وعبر جبال مهمة إلى القرية الكبيرة الحوطه وإلى منطقة مروعة وقراها الستة وحدائقها الغنّاء . وبيوت أجاله مبنية من الطين ويحيط بها الحقول المزروعة المحاطة بالمَراقب . وبعدها نقطع منطقتين جميلتين هما جوالة وأفحا المزروعتين بأشجار الخوخ والمشمش والرمان والعنب الأبيض . وكانت مندر هي العاصمة السابقة لعسير وتحيط بها الجبال العالية التي يوجد أعلاها في الغرب . ويقع عند سفح حائط الجبل حصن الغَدَّه الذي يبلغ طوله ١٠٠ متر وعرضه ٤٦ متر وتعلو أسواره إلى ارتفاع ٤٦ مترًا . ومخرج الوادي الوحيد هو في اتجاه الشرق شمال شرق . وهذا الوادي هو مجرى الماء الفاصل بين البحر الأحمر ووسط شبه الجزيرة العربية . ويتدفق سيل من القرية الجبلية إيشا إلى أبو عريش أو جيزان على الساحل . وتدعى المنطقة عند المنحدر الغربي رجل الماء . وكل المواقع المحيطة بمندر استعصت على الغزاة المصريين لدرجة أن القائد المصري إبراهيم باشا فشل ، بعد أن انطلق في عام ١٨٣٥م من القنفذة ، في الوصول عبر ممر جبلي بالقرب من طبّاه إلى الغَدَّة . وكانت محايل التي تبعد عن القنفذة مسيرة يومين تقوم بوظيفة مخزن الأسلحة وتقع على المخرج الشمالي الغربي للوادي . وكانت هذه الحملة انتهت في عام ١٨٣٥م نهاية مُرَّة للجيش المصري بسبب قلة الغذاء والمياه والأمراض والخسائر البالغة في الأرواح خلال المعارك .

هذا هو كل ما نعرفه ـ حسب معلوماتي ـ عن عسير . وكانت برقية تركية أُرسلت في شهر مايو ١٨٧١م جاء فيها : « استولى الأتراك بعد هجوم صاعق على رَيْدة وقتل في الهجوم محمد إبراهيم . وبهذا فان التمرد العسيري (جاء في الصحيفة القول التمرد الاشوري) ، الذي وصفته الصحيفة في شهر ديسمبر ١٨٧٠م بأنه مسيرة الشيوخ ضد اليمن ، يعتبر الآن منتهيًا . ويبلغ عدد الأسرى ٣٦٠ شخصًا» . ويبدو حسب اعتقادي أن ريْدة المذكورة في البرقية هي الغَدَّه . ومهما يكن فإنني أشك في صحة هذا الخبر لعدة أسباب منها أن المقصود هو ردا الواقعة في بكيل حاشد (شمال اليمن) والتي يمكن للأتراك ، انطلاقًا من مخازن الأسلحة التركية على الساحل ، الوصول إليها دون صعوبة تذكر . وحتى هذا يصعب تصديقه ، فالقتال في عسير وأيضا في اليمن إما أن يقود إلى نتائج وخيمة على استقلال العرب أو أن هذا القتال هو محض اختراع . ولم يسمع المرء عن مثل هذه النتائج مما يعني أن الخيار الثاني هو الأكثر احتمالاً . ونظن أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن سكان هذه المنطقة الجبلية الجميلة كانوا يعيشون في جو الحرية التقليدي والاستقلال في ظل حكم شيوخهم ودون أن يأبهوا بالأتراك والمصريين .

يتميز أهل عسير بصعوبة السيطرة عليهم وبشجاعتهم وإخلاصهم البطولي للسلفيين وكرمهم وحُسن ضيافتهم .

يقطن بنو قحطان في وديان شرعان وهم قبائل نشيطة بعضها بدو رحل وبعضها من سكان الجبال الدائمين . وفي أيام زيارة بوركهاردت للمنطقة كان القحطانيون يشتهرون بتربية الجمال وكان الذي يمتلك ٤٠ جملاً يعتبر فقيراً . وتقع السليّل بالقرب من مناطق آل قحطان وهنا توجد ثغرة في معرفتنا عن شبه الجزيرة العربية . كما توجد علامات استفهام كبيرة على أسماء مثل الأفلاج ووادي الدواسر ونجران

حتى مع أن بلغريف يقول أنه وصل إلى الأفلاج وأن الفرنسي المقدام وذو الفضل (هالفي) عاش بعض الوقت في نجران. والمنطقة تقع على نفس خط العرض الجغرافي الذي يوجد فيه بنو قحطان أو وادي الدواسر ويبلغ طولها حسب بلغريف ٢٠٠ ميل (إنجليزي) وتتصف بالرتابة والطبيعة الرملية مع وجود قرى متناثرة لا تخلو من الماء (كما أبلغه دليله). ويقال أن سكان المنطقة صيادون ماهرون للنعام. وحسب حكايات بلغريف عن رحلته من الرياض إلى إقليم الأفلاج ووصوله إلى شرفا يتضح أن ما لدينا من خرائط، بما في ذلك خريطة كيبرت التي تعود لعام ١٨٦٤م، تضع موقع الأفلاج بعيداً في الجنوب. ومن المحتمل أن هذا التحديد خاطئ وأن حكاية بلغريف ليست صحيحة. وفي الأيام القليلة التي يمكن حسابها بسهولة لا يمكن لبلغريف بأي حال إنجاز مسيرة تزيد عن ١٠٠ ميل. ولذا يجب البحث عن الأفلاج ووادي الدواسر لديه إلى الشمال بثلاث درجات مما ذُكر على خريطة كيبرت. أما استطلاعاته الأخرى حول المنطقة الواقعة شرقي قلعة بيشة فلا قيمة لها خاصة وأنه حصل عليها عندما كان مقيماً في الرياض.

وإلى الشرق من وادي الدواسر ذُكر اسم بنو كلب وبنو مُرّة. وهذه المناطق لم يزرها بالطبع أي أوروبي. ويبدو أن مُرّة هم الذين سماهم بوركهاردت مَرّة وهي عشيرة من عشيرتين تابعتين للقبيلة وهما بنو يام وأوكمان.

إلى الجنوب من عسير يسكن العبيدة وإلى الجنوب من قحطان يمتد من الغرب إلى الشرق وادي نجران الذي كان هالفي هو أول أوروبي اكتشفه لنا (في عام ١٨٧٠م). أما ماكنا نعرفه قبل هالفي فكان لا يزيد عن أنه وادي خصب يسكنه أناس مسالمون ذوو نشاط ويمارسون الحرف اليدوية بجد ومهارة وأنه يقع بين سلسلتين جبليتين وعرتين وأنه طريق واصل بين نجد واليمن. ويتصف السكان من بني يام بأنهم متدينون متحمسون. وينتمي وادي نجران وطبالة في شمران إلى المناطق التي

اعتنقت الإسلام مبكراً . ومن وادي نجران انطلقت منذ العام ١٧٥٠ تقريباً غزوات الغازي مكرمي (عند هالفي تسمى عاصمة البلاد مكرمي) الذي استولى على الأجزاء الشمالية من اليمن وأسس حكمًا امتد بين عسير واليمن وصحراء هيجان .

في ختام جولتنا في عسير نذكر ميناء دوخة والميناء التجاري مخاوة وحالي الواقعة جنوبي القنفذة . وانطلاقًا من قنفده قام الباحثان الألمانيان إيهرنبرغ وهمبريش برحلة أبحاث في منطقة عسير الجبلية وشاهدا هناك أناس لا يسترهم إلا إزار وغطاء رأس ويسكنون في أكواخ مخروطية ولديهم القليل من المواد الغذائية في الأسواق (١٢ بائعًا لديهم أوقية من السكر) . كما رأى الباحثان شجرة البلسم وبعض القرود وأنواع من البوم .

***

الفصل الرابع

نجد

نتجه الآن إلى الهضبة الداخلية في شبه الجزيرة العربية حيث الجو الصحي البارد شتاءً والحار نسبيًا صيفًا وهدفنا هو التعرّف على أقاليمها الجغرافية والسياسية التي تقطعها الطرق التي تمتد من الأطراف إلى قلب جزيرة العرب التي يتميز أهلها بحب الاستقلال والفردية .

تعتمد معلوماتنا في هذا الفصل على مصادر أقل من مصادر الفصول السابقة ، وهو الأمر الذي لا يتناسب مع الأهمية السياسية لهذا الجزء المهم من أجزاء شبه الجزيرة العربية . وهكذا نلاحظ أن نيبور لم ير نجد بنفسه وأن بوركهاردت أبدى أسفه لعدم تمكنه من زيارة نجد التي يعتبرها أكثر المناطق إثارة للاهتمام في شبه الجزيرة العربية ، أما فيلشتيدت فلم تنجح محاولاته للوصول إلى نجد انطلاقًا من غرب عُمان . وكان أول الرجال الخمسة الذين تمكنوا في قرننا هذا من إعطائنا معلومات عن مركز القوة العربية النجدي ومهد الأشكال الجديدة للحياة العربية هو الكابتن الإنجليزي سادلير الذي أرسلته الحكومة الإنجليزية ـ الشرق هندية إلى إبراهيم باشا من أجل تهنئته بالانتصار على السلفيين . وكان سادلير هو أول أوروبي ينتقل في عام ١٨١٩م من شرق شبه الجزيرة العربية إلى غربها ، أي من القطيف عبر الهضبة الداخلية للجزيرة العربية إلى المدينة المنورة. وتدل رحلة سادلير على قوة

إرادة وتحمل جسدي كبير . ومع ذلك فإنه كان يسير على خطى المنتصر المصري مما قلل كثيراً من درجة الخطر الذي يواجهه . والواقع أن رحلته كانت سريعة ولم تجلب معلومات علمية معتبرة . والرحالة الثاني هو والن العالم السويدي الذي توفى وهو شاب (١٨٥٢م) والذي استند على الدراسات السابقة على رحلته والتي لم يكن لها في الواقع علاقة مباشرة مع الهضبة النجدية . وقد جاب والن في عامي ١٨٤٥م و ١٨٤٨م منطقة شمال غرب شبه الجزيرة العربية ودرس أحوالها . والرحلة الأخطر بين رحلات الأوروبين هي رحلة الجواب الإنجليزي بلغريف الذي كان يخشى اكتشاف جنسيته الأوروبية ووصل دون مساعدة رسمية أو دعم قوي إلى قلب منطقة يعيش فيها سكان متحمسون لا نفوذ أوروبي أو اسيوي عليهم ولا يخشون أي عواقب إذا ما تعرضوا للرحالة في منطقتهم . إضافة إلى بلغريف نذكر الرحالة الإيطالي غوارماني الذي انطلق في عام ١٨٦٤م من القدس وعبر الصحراء ووصل إلى شمر وعنزة . وفي عام ١٨٦٥م زار المندوب والمقيم السياسي الإنجليزي في بوشير الكولونيل لفتنانت بيلي الرياض قادماً من الكويت . وكان يرافقه في رحلته الدكتور كولفيل واللفتنانت دوز ورجع من الرياض إلى العقير الواقعة على الخليج . ومن الأهمية بمكان ذكر استطلاعات القنصل البروسي آنذاك في دمشق الدكتور فيتسن شتاين الذي جاب كل المنطقة الشمالية غربية لشبه الجزيرة العربية .

يقع وسط الجزيرة العربية أو نجد بين الأحساء في الشرق والحجاز في الغرب والصحراء السورية في الشمال والصحراء الكبيرة في الجنوب . ولن يخدم غرض هذا الكتاب التعرض للحدود التي قررها الجغرافيون العرب القدامى لنجد أو ما كتبوه عن أجزائها المختلفة ومناطقها وسكانها . وبالمعنى الضيق تقع منطقة نجد

بين جبل شمر (في الشمال) والصحراء الكبيرة (في الجنوب) وجبل طويق (في الشرق) وطريق الحج (في الغرب) ويقسمها أهلها إلى عالية نجد وجنوب نجد .

اهتم العلماء الأوروبيون كثيراً بهذا الجزء الغامض من أجزاء شبه الجزيرة العربية . وزاد هذا الاهتمام بعد أن أرسل نيبور أول خبر عن «جماعة» الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى أوروبا ، أي عن المنطقة التي خرجت منها دعوة الإصلاح السلفية التي سبّبت تحولات سياسية جذرية في شبه الجزيرة العربية .

ذكرنا آنفًا أن الكابتن الانجليزي سادلير كان أول من وصل إلى قلب مملكة السلفيين وذلك مباشرة بعد اندحارهم أمام المصري إبراهيم باشا . وقبل سادلير نذكر ممثل إنجليزي آخر زار الدرعية عاصمة السلفيين في أيام مجدهم ولم نحصل من رحلته إلا على ملخص قصير . والمقصود هو رجل الاعمال الإنجليزي رايناود الذي كان يقيم في عام ١٧٩٩م في قرين عند مازحف السلفيون ووصلوا إلى مشارف المدينة . وكان المقيم الإنجليزي في البصرة وصل المدينة لتوّه وأصدر أوامره بنقل بضعة مدافع سفن إلى البر مما أجبر السلفيين على الانسحاب . وبسبب الانعدام المحتمل لأمن وسلامة الإرساليات الشرق هندية فإن رايناود تحرك كممثل لبلاده في اتجاه عاصمة السلفيين للتفاوض مع حكامها . وكان انطلاقه من القطيف إلى الأحساء وقطع الطريق في سبعة أيام ثم منها إلى الدرعية في ثمانية أيام . وبعد أن مكث في الدرعية أسبوعًا عاد منها ليكون الأوروبي الوحيد الذي رأى المملكة السلفية في أوج ازدهارها ورأى حاكمها المهم من ناحية الفكر والعمل وهو الإمام عبدالعزيز ابن سعود الذي كان عمره آنذاك ٦٠ سنة . وفي أوروبا نشر سيتزين في عام ١٨٠٥م في نشرة زاخس الشهرية تقريراً عن هذه الزيارة .

قبل الانتقال إلى سماع شهادات شهود العيان المذكورين آنفًا نشير إلى مُقرّر مباشر كان له الفضل في إعلامنا عن مملكة السلفيين وهو القنصل الفرنسي العام في

حلب (وبغداد) كورانسيه الذي عمل كعميل لنابليون بونابرت في بداية القرن وظل لمدة ثماني سنوات يلفت النظر إلى دولة السلفيين مستعينًا بضابط المدفعية الفرنسي رايموند، الذي كان يعمل لدى باشا بغداد ، وبمجموعة قيمة من الوثائق حول السلفيين قدمها له العلامة الماروني دييجو فرنجي في حلب. وهذه المعلومات استعان بها كورانسيه فى إصدار كتاب في باريس في عام ١٨١٠م بعنوان :

«Histoire des Wahabis depuins leur origine jusquà la fin de 1809» .

وهذا الكتاب كتب مقدمته وملحقه سيلفستر فون ساسي وضمّنه معلومات عن أقاليم نجد السبعة : الجوف والجبل (المقصود شمر) والقصيم والوشم وسدير والشرقة والدرعية، ومواقعها وقبائلها .

كما أننا استفدنا في معلوماتنا عن نجد من الأوصاف التي قدمها لنا نيبور . والواقع أن معلومات نيبور التي أوردها في كتاب « وصف شبه الجزيرة العربية » صفحة ٣٤٢ وما بعدها كانت غير دقيقة . كما تبرز مشاكل في ما ذكرهُ التاجر يوسف الملكي في القدس لـ سيتزغين في نشرة ساخس الشهرية (عام ١٨٠٨م). وتعتمد بيانات بوركهاردت على الاستطلاع (الملحق السادس للرحلات في بلاد العرب) . وينبغي ذكر البيانات الطبوغرافية التي كتبها فون ساسي في كتاب كورانسيه وما ذكره روسو في «Description du Pachalik de Baghdad» والدراسة القصيرة في «مكتشفات الشرق » التي تحتوي على أخبار السلفيين . وهذه الدراسات تتعرض لتاريخ الجماعة السلفية الإصلاحية . إضافة إلى ذلك نذكر بيانات سادلير في "Account of a journey from Katif to Yambo" المنشورة في مجلة جمعية

بومباي، المجلد الثالث، وتعليق ريان في عام ١٨٦٦م على رحلة سادلير . كما يوجد وصف فيلكس منجين لنجد المنشور في "Histoire de l'Egypte sons le Gouvernement de Mohamed Aly, Paris, 1823" التي أضاف إليها الأكاديمي الفرنسي جومار نبذة بعنوان: "Notice géographique sur le pays de Nedjd" نشرت في الجزء الثاني من كتاب منغين ومعها خريطة تشير إلى طرق سير الغازيَيْن المصريَيْن طوسون وإبراهيم باشا وإلى أخبار طبوغرافية من شيخ يدعى عبدالرحمن العكه. نشير بشكل خاص إلى تقرير رحلة والن في المجلد ٢٠ و٢٤ المنشور في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية وكتاب بلغريف المكون من مجلدين "A narative of a year's journey through Central and Eastern Arabia" (الترجمة الألمانية بعنوان رحلة إلى شبه الجزيرة العربية ١٨٦٢م و ١٨٦٣م و ١٨٦٧م و١٨٦٧م و ١٨٦٨م) وكتاب غوارماني "Il Neged Settentrionale, Gerusalemme, 1866" وتقرير رحلة بيلي في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، مجلد ٣٥، وأخيراً تقرير فيتسن شتاين (١٨٦١م) في مجلة (الجغرافيا)، مجلد ١٨، برلين ١٨٦٥م.

١ ـ من القطيف إلى ينبع :

احتاج الكابتن سادلير للوصول من مخيم بني خالد الاقوياء المسمّى أم الربيعة (Amer Rubiah) إلى منفوحة الواقعة في الإقليم المركزي لنجد (الذي لم يجد ذكراً لديه) بالقرب من مدينة السلفيين المدمرة (الدرعية) إلى رحلة ثمانية أيام. وأثناء سيره في هذا الطريق لم يشاهد سادلير أي مسكن يسكنه إنسان. وكان الطريق الأكثر استقامة يوجد في الجنوب عبر السلميّه في الإقليم الذي سماه باسم الخرج charg أو el-chark . وأثناء إقامته في مكة عرف بوركهاردت الاسم الصحيح للمنطقة الواقعة

بين الأحساء ووسط نجد وهي منطقة سدير . وهذه المنطقة ذكرها فون ساسي أيضًا. وسوف نتعرف أكثر على المنطقة لدى بلغريف . ويوجد في المنطقة جبال جرداء من الحصى وبعض الآبار الواقعة بالقرب من بير رمة. كما يوجد فيها شظايا حصى تغطي السهل وعدد من السيول التي تمتلئ بمياه تهطل دون توقع في شهر يوليو . ويوجد على أطراف الشعاب نبات أخضر وحيوانات برية قليلة منها الجربوع والأرانب والضب ودجاج بري وطيور (٠٠٠) . وهذه القائمة هي نتيجة ملاحظات سادلير وهو يسير في قافلةُ من حوالي ٦٠٠ جمل . وكانت منفوحة يسكنها آنذاك نحو ٢٠٠٠ عائلة وبعض بيوتها مبنية من الحجارة ؛ وكان إبراهيم باشا دمرّ سور المدينة وخندقها . وعلى بعد نصف ساعة إلى الشمال وصل سادلير عبر خربة إلى (الرياض) المكتظة بالسكان والتي أصبحت مركز السلفيين الجديد بعد تدمير العاصمة السابقة الدرعية بالمدفعية إثر حصار استمر خمسة شهور . ويمكن الوصول إلى الدرعية من هنا بمسيرة يوم ونصف تقريبًا في اتجاه الشمال غرب . وفيما يتعلق بالطقس فقد علم الكابتن الإنجليز أن شهور المطر في فصل الشتاء في هذه المنطقة الجبلية تتصف بالبرودة الشديدة ؛ ومع ذلك فإنه لا يذكر درجات الحرارة في تقريره . وبين منفوحة والمدينة المهدمة سار في واد واسع مملوء بالأطلال وأشجار النخيل والتين التي لم يقطعها إبراهيم باشا على غير عادته (يتذكر المرء هنا ما أحدثه من دمار في الأشجار الموجودة حول أثينا). وهذه الشواهد تدل على أن المنطقة كان يسكنها اعداد كثيرة من السكان في العهود السابقة. وفي اليوم الثاني انفتح الوادي شمالاً عل سهل اجتازه المرء متجهًا نحو الغرب . ويوجد وراء السهل صف من التلال يقع على طريق وعرة لا تزال تظهر منها آثار مدفعية إبراهيم باشا . ثم يأتي بعد ذلك سهل آخر يسمى حُصية ويؤدي إلى

المدينة الكبيرة المهدمة التي كانت تقع في واد يضيق تدريجيًا . وفي القسم الجنوبي ، طريفه ، رأي المرء الحصون والابراج والاسوار المحطمّة . وكانت المدينة الشرقية، سله ، منقسمة بواسطة جدول لمجرى نهر مائي لا يصل بالقطع إلى البحر. ويتعرف المرء هنا تمامًا على الدمار الكامل الذي أحدثته قيادة الحرب المصرية ـ التركية بأشجار النخيل والعنب والتين والحمضيات والبرقوق .

لم يعثر سادلير على إبراهيم باشا في هذا الموقع مما اضطره لاجتياز شبه الجزيرة العربية لكي يتمكن من الوصول إليه في المدينة . ومع أننا نرافقه في رحلته فإن معلوماتنا الأكثر عن نجد نأخذها من الرحالة الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم آنفًا .

قطع سادلير عند شمالي المدينة المهدمة ممرًا جبليًا وعرًا عبر جبل طويق واتجه إلى السهل الرملي ثرمداء ثم إلى شقراء عاصمة إقليم الوشم التي هدم إبراهيم باشا أسوارها المحصنة . ومع ذلك ظلت المدينة وأشجارها ، التي تُسقى من آبار عميقة ، قائمة . وفي يوم السير الحادي عشر بعد الانطلاق من منفوحة وصل إلى القرية التي تقع على حدود الوشم والقصيم وتسمى المُنسب Munsib (والاصح المذنب Mudneb) ذات الآبار الكثيرة والماء ذو الطعم المر .

يمر الطريق المتجه إلى الموقع الرئيس للقصيم الجنوبية (عنيزة) عبر جبال قاحلة ويؤدي إلى واد مروي جيدًا لم يدمّره إبراهيم باشا تدميرًا كاملاً . والموقع مهم من الناحية التجارية بسبب مرور القوافل به وهي قادمة من البصرة أو الأحساء إلى المدينة المنورة . حتى هذا المكان كان الاتجاه من منفوحة هو الشمال الغربي ، أما الاتجاه الآن فهو إلى الغرب نحو الرس التي كانت سابقًا عاصمة للقصيم . ومن

الرس يحتاج المرء لمسيرة اثني عشر يومًا حتى يصل إلى المدينة المنورة حيث يخيم إبراهيم باشا. وتعبر الطريق آبار جرزويّه إلى الحناكية التي هي آخر مدينة في المنطقة النجدية وتبعد ١٧ ميلاً ألمانيا (٣٤ ساعة طريق أو رحلة ٤ ايام ، أو يومين على ظهر الذلول) عن المدينة المنورة الواقعة إلى الجنوب تقريبًا.

وهنا نترك الكابتن سادلير الذي زودنا بأول معلومات عن منطقة وسط الجزيرة الواسعة والمهمة وعن سكانها .

٢ ـ من العقبة عبر الجوف إلى حائل:

نرافق الآن جورج والن في جولاته التي بدأها من الغرب وزار خلالها المناطق الشمالية والشمالية الغربية داخل خط عرض ٤ وخط طول ١٠ والتي لاحظها هذا الشاب الممتاز ملاحظة دقيقة من كل جهة مما يجعله إلى جانب نيبور وبوركهاردت نموذجًا للجوابين اللاحقين . وفيما يتعلق بالنشر فإن والن خصّ مجلة جمعية الشرق الألمانية ببعض الاشعار وكتب عن لهجات القبائل العربية التي زارها . أما التقرير عن زيارته للمنطقة المذكورة ، الذي يوجد فيه خريطة تحركاته ، فقد نشره حسب علمي في مجلة جميعة لندن الجغرافية . وهذه الخريطة ضمّنها كيبرت في خريطته الخاصة بشبه الجزيرة العربية والتي رسمها في عام ١٨٦٤م.

في رحلته الأولى انتقل والن في عام ١٨٤٥م من السويس ، عبر وادي التيه ووادي عربة شمالاً في خليج العقبة ، إلى معان القريبة من البتراء الأثرية والتي وصل إليها في ٥ مايو . وتقع معان على طريق الحج السوري وكان يعيش فيها في ذلك الوقت ٢٠٠ عائلة ولها طراز سوري وتبعد حسب بلغريف رحلة ١٣ يوم عن دمشق

ورحلة ٢٦ يوم عن مكة . وتتصف معان بأنها سوق للبدو وبالقرب منها يجد المرء نبات سَمْح القيمّ الذي يحتوي قرنه على بذور نافعة كثيرة . وينتمي السكان إلى قبيلة الشرارات الكبيرة التي تمتد منطقة سكناها حتى الجوف ووادي سرحان نحو الشرق وإلى عشيرتين من قبيلة عنزة الواسعة الانتشار والرولة أو جلاص ونايف . وفي قرى الشوبك والكرك الواقعة شمالاً في اتجاه البحر الميت يسكن بنو صخر . أما منطقة المنحدر الشرقي لسلسلة جبال الشراة التي تمتد شمالاً حتى فلسطين وجنوبًا حتى حجر ووجه الشفا، أي سلسلة الجبال الساحلية ، فيسكنها الحويطات. وقد وجد والَن استقبالاً وديًا من كل القبائل التي زارها وعمل قائمة بأسماء رؤسائها . وكان بوركهاردت قال بحق: «صفة البدوي هي حسن الضيافة» . ويسكن فرع من الحويطات في مصر . وحول كل القبائل في الغرب نجد أخبارًا قيمة في كتاب بوركهاردت « البدو » على الصفحة رقم ٣٠٧ ومابعدها .

جبال الشراة غرانيتية وجدباء وكثيرة النتوءات . وهذه الجبال كانت في السابق مزروعة ، ويكثر الزرع الآن في الوديان. ومن أنواع المزروعات الأعشاب الزكية الرائحة والتي يضاف إليها جو ذو هواء نقي . وكانت سلسلة جبال الشراة بدت لوالن أكثر ملاءمة ونقاء من كل سلاسل الجبال التي عرفها . وإلى الشمال شمال غرب من معان اجتاز والن، بالقرب من نبع ماء ، موقع اذرح حيث اطلال برج مربع وسور وذلك قبل أن يتجه إلى قرية الشوبك . وكان الحويطات يعيشون في خصام مع آل عنزه القاطنين شمالاً. وبالقرب من المكان الذي نتكلم عنه اكتشف بوركهاردت عاصمة الأنباط البتراء. وفي قرية الطفيلة دخل والن إلى الصحراء السورية الحارة القاحلة ثم تقدم شرقًا قاطعًا طريق الحج السوري ليصل بعد بركة رابغ ذات المياه الجارية إلى الصُديٌ وكانت المسافات المقطوعة طويلة والآبار مالحة .

لا يوجد اسم Arabia Petraea الذي يطلق على هذا الجزء من بلاد العرب أصل عربي وإنما أطلقه الرومان عليه بسبب اسم البتراء المذكور أعلاه . والواقع أن المنطقة هي بادية الشام التي هي حسب والن الوادي العريض الممتد من دمشق حتى تيماء ويحدها من الغرب جبل شراة حتى حجر وشرقًا النفود . أما جزء الصحراء الذي قطعه فيسمى بسيطة حيث توجد أيضًا نبتة سمح الطيبة التي تنقع حباتها ثم تؤكل . وسكان المنطقة من الشرارات . وبعد السير شرقًا والمرور قرب آبار صُبيحات وذروة أضيري وصل والن إلى وادي الجوف المدور الذي تحيط به التلال. وكان الوصول إلى الوادي ، الذي هو منحدر أكثر منه وادي ، بعد ٩٣ ساعة سير من الطفيلة . ويعرف الكتاب العرب القدامى هذا المكان على أنه جزء من صحراء الدهناء . ويعطي والن للوادي قطراً تبلغ مساحته ثلاثة أميال (ثلاثة أرباع ميل ألماني) وللأطراف علواً يبلغ ٥٠٠ متر إنجليزي . وتشكل الحجارة الرملية أطراف الوادي ويوجد الكلس في الغرب . وعند الدرجة النهائية تقع مدينة الجوف في وسط الدائرة وبالقرب منها برج المارد القديم المهدم الذي يشرف على الوادي . وتتصف التربة بالجدب والبيوت مبنية من اللبِن الطيني المجفف والشوارع ضيقة وغير منتظمة وغير مبلّطة . وفي كل حي يوجد مكان يستريح فيه الغريب ويجتمع فيه السكان مساءً للسمر . ولا يخلو أي بيت من صالون القهوة لاستقبال الضيوف . وتقع كل الحدائق خارج المدينة وتحيط بها الأسوار وتخترقها الأزقة حيث قنوات المياه التي تستخدم للري المستمر ليلاً ونهاراً . ويرتبط الريّ بمساحة الحديقة ويستأجر المرء مياه الري بالساعة . إضافة إلى ذلك توجد في الحدائق آبار خاصة ويوجد الماء على عمق أقل مما هو موجود في المناطق الصحراوية المحيطة بالحدائق . والشجرة التي تجد الاهتمام هي النخلة ، ولم يجد والن اسم سرحان للجوف . ويصف السوريون الموقع بأنه الأول في نجد .

يوجد بالمدينة اثنا عشر حيًا أو سوقًا يسكنها أبناء قبائل مختلفة وتتجه حركة السير منها نحو سورية . وهذه الأسواق هي من ناحية الغرب :

١) سوق الغرب وله ثمانية فروع هي : اشوان ، ابن حسيني ، سنا ، المرعي ، الجفرية ، عين أمي ، سليم ، ابن قايد . وفي السوق نحو ١٠٠ عائلة معظمهم من شمر . ويوجد في اشوان رولة من قبيلة عنزة . ٢) سوق الدير وهو أقدم جزء وبه بناء حجري قديم استعمله الخليفة العظيم عمر (رضي الله عنه) كمسجد وجدده السلفيون . وإلى جانب البناء توجد بوابة تصل السوق بالحي التالي ولوحظ وجود مئذنة ربما كانت هي المقصودة من قول بوركهادرت وسيتزين بأنه بناء يشبه المسلة أو الهرم . أما شاهد العيان والن فلم فيها أكثر من مئذنة لدعوة المسلمين إلى الصلاة . ويتبع هذا السوق حصن المارد القديم المبني من حجارة مربعة تشبه أبنية الحصون في دمشق . وكان الحصن في الماضي أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر وقياسه حاليًا ٣٠ - ٤٠ مترًا (إنجليزيًا) . والقسم الأكبر من سكان سوق الدير وعددهم في أيام والن ١٣٠ عائلة جاء من شقراء الواقعة في نجد . وكان يوجد في السوق ثلاث آبار وفيرة المياه . ٣) سوق السيّديْن الذي يسكنه خمس عشائر وبه برج القصيّر كمقابل لحصن المارد . ٤) سوق الرحيبين من رحيبة في سورية . ٥) سوق الألاج وسكانه مهاجرون من الطفيلة . ٦) سوق الخضمة وسُمي كذلك على اسم بئر وسكان السوق بدو مهاجرون من سرحان . وهذا القول ذكره السكان أنفسهم لإبراز الفرق مع جيرانهم القراونة . وكان يوجد في السوق أيضًا (متولدون) من القادمين غالبًا من مكة . ٧) سوق الدلهمي الذي هدمه رئيس شمر الذي ساعد أقاربه في حي القروي المجاور . وقبل احتلال الشمري عبدالله بن رشيد للجوف كانت الخلافات معهودة بين الأحياء . وكان والن أخبر في ذلك الزمان ، قبل عام

١٨٤٠م ، عن اغنية مثيرة للاهتمام تتعلق بهذه الخلافات واسمعه إياها مؤلف الأغنية بمرافقة موسيقى الرَّبابة . وأبلغ والن عن هذه الأغنية في المجلد الخامس من مجلة جمعية الشرق الألمانية . ويبقى الآن الأحياء الواقعة أسفل المدينة وهي : ٨) الكراتين و٩) الوادي الواقع على التلة المخروطية سبّا شمال غرب المارد بالقرب من جال الجوف و ١٠) الجوطي و ١١) السيدان و ١٢) القروي الذي تتكون غالبية سكانه من الحرفيين الذين ينحدرون من جبة من قبيلة شمر .

سمّى دليل فتيزن شتاين المدينة في الجوف باسم دوما ، أي باسمها القديم كما سنرى بعد قليل . وحسب الأقوال المرويّة فإن المدينة كانت تدعى بين عهدي النبي سليمان ومحمد (ﷺ) دومة الجندل . وهذا الاسم الذي يعني « كومة الصخور الكبيرة » يعرفه الجغرافيون العرب القدامى . وفي أيام النبي محمد (ﷺ) كان يحكم المدينة من مقره في حصن المارد مسيحي يسمى الأكيدر (أكيدر) . وفي ذلك الزمان كانت مساحة المدينة أكبر بكثير ، وهو ما يشهد عليه بقايا جسور المياه واللوازم المطمورة . وكان أكيدر اعتنق الإسلام مع أهل مدينته . ومنذ ذلك الوقت انعدمت الأخبار المهمة عن المدينة وذلك ماعدا أخبار الشجارات بين الأحياء . وقد تحسنت ظروف المدينة بعد فتح احد قادة ابن سعود للمدينة . فهذا القائد حطم ضريحًا كان يجلّه الناس ـ قبر ذو القرنين ـ وحصّل الزكاة وجلب من الدرعية الأئمة ، الذين يسمون خطباء ، لدعوة الناس إلى قبول التجديد الديني الذي يدعو إليه السلفيون . بعد ذلك توقفت العداوات وعاد النظام إلى المدينة ولم يعد ، في أيام زيارة والن ، يتذكر الأحوال المضطربة السابقة إلا الطاعنون في السن . وبعد اندحار السلفيين على يد المصريين (الذين لم يصلوا إلى الجوف) عادت العداوات القديمة سيرتها الأولى وذلك إلى حين وقوف عبدالله بن رشيد الشمري إلى صف حيّ

مواطنيه والاستيلاء على الحكم في عام ١٨٣٨م . وقد أصبح لكل حيّ شيخ وكانت الأمور المهمة يعالجها الشمريون في حائل ـ أما الزكاة فكان يجمعها بعض السكان الذين يعيّنهم لذلك آل شمر . وكان يوجد في كل حيّ مسجد يدعو فيه الخطيب يوم الجمعة إلى التوحيد الذي يسترشد بالقرآن والسنة .

امتدح الجوّاب التدريب الواسع للشباب في المناطق السلفية وانتشار القراءة والكتابة . ووجد والن ضيافة حسنة في الجوف . ولفت نظره كثرة المواهب الشعرية وعزف الربابة في الخيام أو خارجها . ومن النادر أن يغادر أهل الجوف منطقتهم اللهم إلا للذهاب إلى عاصمتهم السياسية شمر أو إلى مكة . ويحصل الأهالي على حاجاتهم المستوردة مما يجلبه العنزيون من العراق والشرارات من سورية . وما عدا ذلك فإن المنطقة تقع بعيداً عن طرق الحجاج الكبيرة . والإنتاج الرئيس للجوف هو التمور الفاخرة . وكانوا في الزمان القديم يدفعون التمور ضريبة ثابتة لبعض القبائل البدوية وبالذات الشرارات وعنزة ومنهم الرولة أو عشائرها نايف وشعلان الذين يقيم معظمهم في حوران جنوبي دمشق ويرسلون في بداية الصيف قطعانهم إلى النفود. ويسكن البدو الأغنياء أحياناً في المدينة . ويكثر الشرارات في وادي سرحان وينتشرون في النفود وفي جبل الشراة . وهم يرون في الجوف مدينتهم ويجلبون إليها الأنعام والزبدة والصوف وغيرها ويحصلون مقابلها على التمور والأغطية . وتأتي القهوة عبر شمر من مكة والتي تصلها من اليمن . وكانت التجارة تتم بطريقة المقايضة ويندر وجود القطع النقدية .

كان سكان المدينة يصفونها بأنها وسط العالم ، والمقصود توسطها على بعد سبعة أيام سير إلى دمشق ومشهد علي والمدينة المنورة والكرك في فلسطين .

وكانت دمشق تسمى عندهم الشام الكبير ، كما تسمى القاهرة عند عرب الغرب مصر أو مصر الكبير . والطريق الموصل إلى دمشق يمر عبر النبك ومغيرة وقراقر وإحراك وبصرى وحُريرة ثم دمشق ؛ ويؤدي الطريق من قراقر إلى إحراك وإلى وادي سرحان . والطريق إلى المدينة يتماس مع تيماء وحجر ؛ أما الطريق إلى بلاد الرافدين (العراق) فيمر عبر التفاف كبير حول شمر .

وفي الختام نود القول بأن الجوف ، على الرغم من اسمه ، ليس منحدراً يقابل هضبة نجد بل هو الحد الشمالي لكل الهضبة . أما الاعتقاد السابق بوجود اتصال جبلي بسلسلتي جبال طيِّء في شمر فلا وجود له حاليًا .

قدّر والن عدد السكان بـ ٤٠٠ عائلة . وإلى الجنوب على بعد ثماني ساعات من الجوف تقع الطُوير . وبين الطوير وسكاكة ببرجها المهدم زعبل واحيائها الاربعة توجد قارة القديمة ، والمواقع الثلاثة يوجد بها ماء .

***

انطلق والن مع عائلة بدو رحّل إلى شمر في الاتجاه الجنوبي الشرقي . وبعد أن سار في الرمال المتحركة وصل إلى آبار الشقيق Schakik الستة التي تبعد ١٤ ساعة عن الجوف . وكان بوركهاردت ذكر شقيق (Schageyg) في الملحق السادس وبيّن أنها تبعد مسيرة يوم عن الجوف وأربع ساعات عن شمر . وللماء أهمية فائقة للقادمين من سورية إلى نجد ، كما يتجمع في الموقع البدو وأنعامهم . وقبل وصول والن إلى الموقع بيومين - في نهاية شهر أغسطس - كانت مائة عائلة من الرولة وشمر والشرارات تقيم عنده .

يوجد جنوبًا علامات برية أهمها جبل العُليمْ وجبل التركي . وفي ما يتعلق بالجبل الأول فإن ما قاله ياقوت يظل صحيحًا : «العلم يعني في لغة البدو الجبل» . أما الجبال الثلاثة الأخرى التي تبعد نحو نصف الطريق إلى حائل عن الجبليْن المذكوريْن فهي المسلمان وإلى الشرق منه عنيزة وإلى الجنوب من الاثنين الجوْطة . وبين هذه الجبال تقع قرية الجوبة التي وصلها والن على ظهر جمل بطيء بعد سير ٨٧ ساعة من الجوف . ويقطع راكب الذلول يوميًا في الصحراء بالمتوسط ١٥ ساعة . وتحتاج الجمال القوية لأربعة أو خمسة أيام أي لحوالي ٦٠ ساعة . والطريق من الجوف متموجة وتغيض الأرجل في الرمال مما يعني مشقة كبيرة . كما أن دليل فيتسن شتاين ذكر أن المنطقة بين الجوبة والشقيق تخلو من الماء في الصيف والشتاء . وسنتعرف لاحقًا على مشاعر بلغريف تجاه هذه الصحراء المتوهجة ، كما سنتعرف على علامات الطريق التي وصفها غوارماني في الكتاب الذي وضعه عن رحلته .

في السهل الواقع بين الجبال الثلاثة توجد إشارات على وجود ماء ومن ثَمَّ على وجود قرية . وكل بيت في القرية تحيط به حديقة فيها بئر تسحب الجمال منه الماء . وينبت في هذه الحدائق ذات العناية الموفورة النخيل والفاكهة والأثل العربي الجميل . ووجد والن في هذه القرية الصحراوية النائية ١٧٠ عائلة من فرع شمر العريق المسمى أرمال . وكانت طريقة عيشهم طريقة بدوية ويملكون قطعانًا كبيرة وما عدا ذلك فإن حركة السير قليلة ولا يوجد باعة متجولون . ويحصل الناس بواسطة البدو على حاجاتهم القليلة ، خاصة من القماش ، من حائل وعلى الأرز من العراق ؛ أما أنواع القمح والذرة البيضاء والشوفان فيزرعونها بأنفسهم . وكان والن شاهد أكثر من ١٥٠ خيمة بدوي في القرية وأغلبهم من الرولة وشمر وعنزة . كما

شاهد حلفاءهم من الشرارات . ولا توجد آبار بين الشقيق وجوبة . ويميز جبل مسلمان جغرافية المنطقة . وقد ذكر السكان أن هذا الجبل كان اسمه القطيفة . وهذا التغير في الاسم ليس غريبًا خاصة مع ما تشهده المنطقة من تغيرات متكررة للسكان. وكان وجود الحجارة وكثرة المنحدرات أوحت للعرب بقول الأساطير حول وجود حصون للشياطين وكنوزهم. والسهل مغطى بحجارة كبيرة يبدو أنها سقطت من أعلى بسبب الهزات الأرضية . ويقول الأهالي أن السهل كان أكثر صلاحية للزراعة بسبب وجود نبع ماء غزير يتدفق من الجبل . ويأمل سكان القرية برؤية هذ النبع يتدفق مرة أخرى . وقد تذكر والن تبوك عندما رأى رسومًا منحوتة في الحجارة الرملية تمثل الخيل والجمال وعربة غريبة على مثل هذه المنطقة إذ كان لها أربع عجلات ويجرها جملان . كما وجد البسملة بالخط الكوفي ولم يجدها بالخط العربي الحديث .

يحدد دليل فيتسن شتاين المسافة بين جوبة وحائل بـ ٢١ ساعة . وأول ما شاهده فيتسن شتاين بعد انطلاقه من جوبة بثلاث ساعات كان جبل الجوطة الذي بدأت عنده النفود . وفي جهة الجنوب الشرقي شاهد المرء جبل أجا الشاهق . وعلى بعد قليل وراء خربة قناة، التي تمتلك ماءً جيداً، تدفقت النفود وبدأت أرض غرانيتية منبسطة.

تعني كلمة نفود مساحات الرمل الناعمة مع وجود كثبان ، أما اسم دهناء فلم يعد يستعمل كثيراً لهذا النوع من الصحراء ومثل ذلك اسم ضاحي . ويحدد والن امتداد النفود بشكل دقيق لم يسبق إليه أحد : فحدودها الجنوبية تمتد من جبل حلوان شرقي تيماء حتى جبل أجا . وتصل الحدود الشمالية عبر وسيْط حتى مسيرة

يومين جنوب شرقي دمشق وتقترب الحدود الشرقية في بعض المواقع من الخليج العربي . والموقع الأعرض يقع جنوب شرقي الجوف . وفي اتجاه الأحساء كانت منطقة حدود الصحراء تدعى أحيانا الدهناء . وكان والن خمّن وجود علاقة للنفود مع يبرين ،أي مع شمال الصحراء الجنوبية الكبيرة الربع الخالي . وبين الجوف وجبه وبين حُلوان ووسيط يوجد المركز الحقيقي لبلاد النفود . وعندما تمطر السماء في الربيع وتتجمع المياه في البرك والأحواض فإن النفود تتحول إلى مرعى ممتاز ، كما أن الجغرافيين القدامى يصفون جوه بأنه صحيّ وخال من الحميّات . ونادراً ما يرى المرء مخيمات بدو بين الشقيق والجوبة . أما وادي السرحان في الشمال والأجزاء المتاخمة لشمر في الجنوب فلها زوار كثيرون . وفي الشرق يتجول في الشتاء والربيع أبناء شمر والضفير والمنتفق . وفي الصيف يترك بعض الشمريين المنطقة إلى البلاد التي تحمل اسمهم ويغادر آخرون المنطقة إلى الفرات . ويرى المرء مخيماتهم أحيانًا بالقرب من لينة .

يوجد في صحراء النفود جبال تشبه كف اليد تتجه عمومًا إلى الشمال والشمال الشرقي . وقد حسم والن أمره بخصوص خمسة من المواقع : ١) كشافش ، ٢)همتان ، ٣) رمث ، ٤) مُعَبّر ، ٥) خرواع وتعتبره نجد الهضبة الفاصلة بين الدهناء أوالنفود في الشمال والأحقاف أو الربع الخالي في الجنوب . ويعتقد والن على خلاف ريتر أن مرتفع الجزيرة العربية لا يوجد من الشمال إلى الجنوب بل على الأصح من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي . ومما يدل على ذلك جريان السيول وحالة الطقس والاستعمالات اللغوية للعرب الحاليين : فسكان جبل شمر «يصعدون» إلى المدينة و«ينزلون» إلى عُمان . وحسب والن فإن مد سكة حديد من (الوجه) على البحر الأحمر إلى (القطيف) على الخليج لن يواجه صعوبات جمة من ناحية تضاريس سطح الأرض .

نواصل سيرنا مع والن من قناة إلى قرية اللقيطة التي تقع على مشارف سلسلة أجا والتي عدّ فيها ١٢٠ عائلة شمَّرية . وعلى بعد أربع ساعات من هذا الموقع وصل والن في ٢٠ سبتمبر إلى الناحية الأخرى من جبال حائل التي هي مقر شيوخ شمَّر وعاصمة جبل شمَّر والتي قال عنها ريتر أنها « أكبر ممر مركزي كبير منظوراً إليه من منطقة ضفة الفرات . »

تتصف سلاسل جبال أجا وسلمى الغرانيتية بأنها اكثر شهرة وذكراً . ومن جبل طيِّء الاثنين يمكن القول أن أجا هو الأكثر اهمية ويبلغ طوله خمسة أيام، والأصح ٤٠ ساعة، وعرضه من ٨ - ١٠ ساعات (؟) وعلوه ١٠٠٠ متر . ويذكر بلغريف ارتفاعات تصل إلى ١٤٠٠ متراً ولجبال سلمى ما بين ٧٠٠ و٨٠٠ متراً فقط . وبموازاة أجا توجد لجبال سلمى التي يفصلها عن أجا سهل بعرض ١٢ ساعة يدعى سهل الباطن . ولا يبلغ طول السهل ثلاثة أيام سير بل هذا هو مداه . والجبلان يخترقهما وديان ويذكّر نباتهما بسورية . والبيانات التي قدمها دليل فيتسن شتاين ، البدوي نجم سكرتير شيخ ولد علي من عنزة ، ليست صحيحة تماماً . فهو يذكر أن طول أجا ١٢ ساعة فقط وليس ٤٠ ساعة مما دعا والن إلى إضافة الجبال المتاخمة إلى الحساب . وقال نجم أيضاً أن الجبال بازلتية وبركانية مما دعا والن إلى تصديقه بسبب ما يتصف به من انتباه وصدق .

يذكر والن أن سلسلة جبال أجا هي الحدود الشمالية الغربية لنجد وهي تدخل في سلسلة جبال الحجاز ولا تنضم إلى السلسلة أي جبال من الناحية الشرقية بل كثبان رملية متفرقة . والباطن ليست رملية مثل النفود بل بها حصى غرانيتية . وبالقرب من حائل ترتفع سمرا حائل المخروطية وهي تدعى كذلك على اسم واد من أجا يمر بالقرب من موقق وربما يستمر نحو الشمال الغربي عبر الغوطة إلى وريك ثم ، قبل أن يغطي الرمل الوادي ، إلى وادي السرحان .

يجد المرء في الآبار المحاطة بالنخيل وحقول الحبوب ماء عذبًا يُرفع من البئر بالناعورة . ويكون الماء فاترًا في النهار وهو يبرّد بالقِرَب وليس في أكواز الفخار كما في مصر . عدا ذلك يوجد في الحدائق أواني للمياه تستخدمها النساء للغسيل ويستخدمها الرجال للوضوء . وهذه الأماكن بديعة بسبب مابها من أعناب وفاكهة . ويُزرع في الحدائق الفاكهة والقرع والبطيخ والذرة والبرسيم . وإذا لم يكن المحصول كافيًا فإن العراق ، وبالذات مشهد علي وكربلاء ، يسد النقص . والحبوب المحلية وخاصة الشوفان أكثر جودة من شوفان المناطق الأخرى . والواقع أن بني تميم كانوا منذ العهود العربية الأولى مزارعين ممتازين .

اتصف الشمَّريون المستقرون بأنهم شعب نشيط ومقدام وأنهم يتمتعون كمحاربين بسمعة حسنة تفوق سمعة الحضر والبدو الآخرين المجاورين لهم . ومن هنا جاءت انتصارات رئيس شمَّر المذكور عبدالله بن رشيد على الجيران وانتصارات ابنه طلال والهجوم التمويهي الجانبي الذي حدث في عام ١٨٧٠م وقام به ١٢ ألف شمَّري ضد الأتراك الذين دخلوا إلى الأحساء (صحيفة الجماينه تسايتونغ في ٢ أغسطس ١٨٧١م) .

ينتقل والن إلى الحديث عن تشكيل القوات المسلحة : عندما ينوي رئيس القبيلة الغزو فإنه يجند الأنفار في القرى كما كان عليه الحال عند الرومان والجرمان في الأزمنة القديمة . ويكون التجنيد أحيانًا قسريًا ويكون مع كل نفر حصانه أو جمله وتموينه وذخيرته . ويصدر الأمر بالنفير للبدو ويُطلب منهم التجمع في مكان وزمان معين . ومع ذلك تظل تشكيلات البدو مجرد فرق مساعدة . وبعد انتهاء الغزوة يحصل كل مشارك فيها وعلى أساس قرار من رئيس القبيلة إما على نقود أو

على جزء من الغنيمة . ويستأجر أهل القرى جمال البدو لمدة ثلاث شهور من أجل سحب الماء من الآبار .

تفاجأ والن في أيامه ، أي في عام ١٨٥٤م، بنفوذ شمَّر ونفوذ شيخهم : فالبدو، حتى في المناطق البعيدة ، كانوا يدفعون له الزكاة وكانوا يعرضون عليه خلافاتهم . وأثناء إقامة والن في المنطقة كان ٢٠٠ ضيف ينزلون في ديار الشيخ الشمّري من أجل تحكيمه للحصول على حقوقهم وحل نزاعاتهم مع الآخرين . وكان في بيت الشيخ ٢٠٠ مستخدم أغلبهم من السود المعتوقين والمصريين الذين ظلوا عنده بعد رحيل جيش إبراهيم باشا .

كان الشيخ عبدالله بيده زمام الحكم حتى تاريخ وفاته عام ١٨٤٨م أوعام ١٨٤٥م. وبعد هذا التاريخ خلفه ابنه الأمير طلال الذي كان يتصف بالحكمة وقوة الجسم والذي سنسمع عنه أكثر فيما بعد عندما نرافق بلغريف في رحلته . أما ابنه الثاني فكان اسمه متعب . وفي كل الأحوال كانت الحكومة في شمر في زمن والن بَركة للبلاد والعباد : فالأمن التام مستتب في كل أرجاء البلاد . وبالمقارنة فإن المرء كان يحتاج لقطع طريق تتراوح ما بين ٣ و ٤ ساعات في حائل وقفار إلى جمع من المسلحين لحمايته . وفي السابق كان السلب والنهب عاديًا في كل قرية وأما في الوقت الحاضر فالنظام يسود والكسب الحلال مضمون .

في ما يتعلق بالسلفيين في شمر لاحظ والن أن الشمريين كانوا محاربين أشداء ودعاة شجعانًا لدعوة التجديد السلفية . كما سمع والن أن الشمريين ليسوا متعصبين ولكنهم متمسكين بدقة بالابتعاد عن الممنوعات مثل التبغ الذي يسمى «بول إبليس» ولبس الحرير وقول الشعر وسماع الموسيقى وغير ذلك من

المسليات. ومع أن المرء تسامح بشأن التبغ فإنه كان ممنوعًا على المدخِّن أن يصبح إمامًا وكان القسم الأكبر من الشعب يحتقر التدخين. وعلى أي حال ظل الشمريون يتمسكون بتعليمين من التعاليم السلفية وهما: ١) عدم الاعتراف بالأولياء كشفعاء و٢) وجوب الصلاة جماعة في المسجد مما يفسر وجود المساجد في كل حي من أحياء المدينة. وكانت النساء تشارك أيضًا في صلاة الجمعة. وكان عبدالله يشارك بانتظام في صلاة الجمعة في الجامع الكبير في حائل. وكان على إمام المسجدأن يكون ضليعًا في شؤون الدين. أما الشخصية الإسلامية الأخرى البارزة في البلاد فهي القاضي الذي ينبغي أن يكون دارسًا للفقه الحنبلي. وحسب والن فإن الدعاة يسمون في نجد خطباء ويقتصر لقب الإمام على أمير من أمراء آل سعود. وفي التقارير التي كتبها بعد والن كل من بلغريف وبيلي فإن الحاكم في الرياض كان يسمى أيضًا السلطان. ومع عدم وجود المدارس كان الأب يعلم أولاده مبادئ الدين وقراءة القرآن وأداء الصلاة ومايهمهم من شؤون دنياهم. وشاهد والن بإعجاب كيف يشارك الفتى العربي في الحديث. ووصف والن أبناء البدو بقوله: «لم أشهد في أي جزء من أجزاء العالم أطفالاً حساسين ومهذبين ومطيعين كأبناء البدو».

كانت عائلة الأمير تضم عدد من الشعراء، وعبد الله نفسه وأخوه عُبيد كانوا من الشعراء. وقد جلب والن من الجوف بعض الأغاني العربية الحديثة، على سبيل المثال هذه الأغنية: «ياراكبًا أمامنا على جمل رشيق يشبه النعام ويامن يرى الصيادين في الأفق ويسرع كما عجلة البئر عندما يترك المرء حبلها. يا أيها الرجل الذي يجلب الرسالة الحقة، إذا وجدت عند الغروب مساعد فقل له: ان وقت الكيف والغناء جاء وإذا امتنعت عليك حلاوة النوم فأنت الآن ستحصل على رغباتك؛ لقد انتقمنا من أعدائنا وهدّمنا بيوت الخونة بمساعدة شيخ يعيد أمجاد الماضي. هدمنا البيوت وغنمنا النخيل. هذه هي أعمال أخو نوره (اي عبدالله)

الذي يرتفع مثل النسر الأصيل على جبال حائل ولا يحتاج إلا لتصفيق من يديه لكي يسود الرعب في كل الجوف . يا أيها الناس ، لقد رفع أخو نوره رايات الحرب عالية فوق بيته » إلخ .

والقصيدة تشير إلى نجدة عبدالله لمواطنيه في الجوف . كما أوصل لنا فيتسن شتاين شعراً من عُبيد أخ عبدالله . كما شاهد والن القرآن الكريم وبعض كتب القانون عند القاضي واشار إلى ان ذرية المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانوا من الفقهاء في العقيدة . ومن الكتب الموجودة : « كتاب التوحيد » و « كشف الشبهات» و «كتاب الكبائر» و «حدائق المتقين» و «كتاب الأربعين حديثًا» . وقد حصل والن على كتاب «كشف الشبهات» .

أخبرنا والن بعد ذلك عن عشائر شمَّر وأهمها العَبْدة والجعفر . وتنتمي عائلة عبدالله إلى هذه العشائر ولها صلة قرابة مع عشيرة عبيدة في عسير . والعشائر الأخرى المتفرعة عن شمر هي سويد وسنجار وأسلام وتومان وأرمال ومطير وصُبيح . ويقال إن السُفوك الذين هاجروا بعد مجيء السلفيين إلى بلاد الرافدين كانوا أعرق قبيلة في الجبلين . كما هاجر الزكاريت إلى كربلاء . وكانت علاقات أهالي شمر مع بلاد الرافدين وليس مع سورية أو مصر ، علمًا بأنه كان يوجد علاقات للشمريين مع المصريين في مجال تجارة الخيل . والخيول الشمَّرية ممتازة وكان إسطبل عبدالله به ٢٠٠ رأس كانت موزعة على القرى . وكان بعضها يرسل كهدايا إلى الباشوات في مكة والمدينة وبغداد وإلى الرياض . وفي أيام بلغريف كان إسطبل طلال الكبير يوجد في حفر مَعَدْ بالقرب من حائل . وكانت أعداد الجمال كثيرة ولكنها أقل جودة من جمال عُمان وشرق نجد . وكان سعر الجمل يتراوح ما

بين ١٠ و ٤٠ دولاراً إسبانيًا ، أما سعر الحصان فيتراوح ما بين ٢٠ و ٣٠٠٠ دولاراً إسبانيا . وكان يوجد في المنطقة حمير ولكن والن لم يشاهد بغال . والأغنام كثيرة ويعيش معها الغزلان . أما الكلاب فهي قليلة وتبتعد عن الناس الذين يعتبرونها نجسة . والدواجن أيضًا قليلة ولكن الماعز البري والوبر الذي يصطاده الناس ويأكلونه يوجد بكثرة في الجبال الغرانيتية . كما توجد الضباع ونوعين من الذئاب والثعالب وابن آوى ولكن لا توجد أسود . وتظهر الأسود في العراق . ومع أن والن لا يذكر حسب معرفتي الجدي فإنه البدو يشيرون إلى وجوده . أما النعام فيصيده أبناء هتيم والشرارات في دهانة وبالذات بالقرب من الجوف . وكما ذكر دليل فيتسن شتاين يحب المرء صيد الأرانب والغزلان والظباء والجرابيع والضب وأيضًا الشنّير .

بلغ عدد منازل حائل في أيام رحلة والن نحو ٢١٠ منازل يتكون معظمها من طابقين . وتتصف غرف المنازل بأنها ليست مريحة كثيراً ويصلها الضوء عبر البوابة وفتحات الجدران الضيقة . وكان بيت عبدالله لا يختلف عن البيوت الأخرى إلا بالحجم وكل غريب كان ينزل ضيفًا في بيت الأمير . وكان الضيوف يقضون الليل في مكان يشبه ساحة القوافل وفي قاعة المقهى والمسجد . وكان مجلس الأمير يُعقد في العراء في أماكن بها مقاعد طويلة . وكانت الشوارع عريضة وغير معبدة . وكان في أحد الشوارع وأسمه لبُدة تجار من العراق والمدينة والقصيم . وكانت أسواق أخرى تتخصص في بيع المواد الغذائية . وحتى في ذلك الوقت كانت المدينة تنمو بسرعة وكانت قرية الوسيْطة التي تبعد ثلاثة أرباع الساعة بدأت تنضم إلى حائل .

قبل مغادرة والن لحائل شغله كما شغله في الجوف السؤال حول السكان السابقين لـ « البلاد التي تقع عند جبال طّيء» . ويقال إنهم ـ كما يشير أيضًا ياقوت ـ

امتهنوا الفلاحة بعد مجيء الحميريين . ومما ساعد على ذلك أن منطقة شمر بلاد لها موقع مركزي ممتاز وذات تربة خصبة وجو صحّي وتملك الجبال الغرانيتية الوحيدة في النصف الشمالي من الجزيرة العربية مما أحال السكان ، بسبب السهل الرملي والوديان الجبلية ، إلى نصف بدو ونصف فلاحين وميّزهم بالنشاط وأعطى حائل مركزاً ممتازاً . وفي ذلك الوقت أيضًا كان يوجد في المنطقة نبع ماء يوجد بالقرب من أشجار النخيل المملوكة للبدو . ومع أن البدو بدؤوا يتعلمون فنون الفلاحة فإنهم ظلوا بعيدين عن مزاولة الحرف اليدوية .

هذا هو ما كان عليه الحال كما رآه والن في عُقدة وسلسلة جبال أجا . وقد أشار دليل فيتسن شتاين المدعو حامد إلى قرية للقبائل الرحل في نجد اسمها حضيرة يترك البدو فيها في الصيف خيام الشتاء الصعبة على النقل وفي الشتاء خيام الصيف ويخزنون فيها كميات تموينية كبيرة من التمور ومن الشعير لخيولهم ويضمنون بئر ماء لمواجهة فصول السنة التي تخلو من المياه ويعتنون فيها بأشجار النخيل .

نترك الآن مع والن عاصمة شمّر ونبدأ بتسمية بعض المواقع التي سنتعرض لها بالتفصيل لاحقًا عندما نتكلم عن الجولات الاستطلاعية لفيتسن شتاين أو بلغريف أو غوارماني . من هذه المواقع قفار الواقعة إلى الغرب على بعد ثلاث ساعات جنوب غرب حائل والتي كانت في عهد والن والعهود اللاحقة مزدهرة وبها بساتين كثيرة ويسكنها آنذاك ٥٠٠ عائلة من بني تميم يتكلمون لهجة خاصة بهم ويتصفون بالتحمس للسلفية وبأنهم حجاج أتقياء . أما قرى بني تميم الأخرى فهي : المُستجدة على بعد مسيرة يومين إلى الجنوب غرب من قفار . وكان بوركهاردت ذكر هذين

الموقعين في كتابه « رحلات الجزيرة العربية الملحق رقم ٦ » ومما قاله عن قفار «Kofar» أنها ثاني أكبر مدينة في حائل «el-Hayl » وأنها عاصمته. أما المستجدّة فوصفها بأنها واحدة من المدن الممتازة في شمر . عدا عن ذلك يذكر (روضة) البعيدة نحو نصف يوم إلى الشمال من مستجدة. ويذكر والن أيضًا الموقع القديم (فيد) الذي يقع على بعد يومين جنوب شرق حائل على الناحية الأخرى من جبل سلمى والذي يقع حسب ياقوت في منتصف الطريق بين الكوفة ومكة على طريق الحج ويعتبر «بَرَكة للحجاج» وهذا الموقع ظل موجودًا على طريق الحج مثل مواقع قديمة أخرى منها معان وتبوك وحجر . وحاليًا لا توجد أهمية لـ (فيد) ونصل إليها بصعوبة مع بلغريف ،أما ريتر فلم يتمكن من إعطاء معلومات مؤكدة حول أوضاعها. وبمناسبة ذكر هذه المواقع يشير والن إلى الحوطة في عريض التي يسكنها بنو تميم.

يؤدي الطريق إلى القصيم عبر (فيد) جنوب شرق الكهفَة (عند كيبرت الكهفة) التي تبعد ٦ ساعات عن (فيد) ومنها يوم مسيرة طويل حتى أول موقع في القصيم واسمه القُصيبة. وعلى بعد قليل من مستجدة و١٩ ساعة عن قفار وصل والن إلى قرية غزالة الواقعة بين القريتين المذكورتين والتي يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ عائلة شمّرية . وعلى بعد مسيرة ثلاثة ايام من هناك وخمسة من حائل على الحدود مع بني حرب المتنفذين والمنتشرين جنوب وشرقي المدينة المنورة ذكر والن اسم القرية الصغيرة قصر السليمي التي يوجد فيها قصر منيع يحمي من غارات البدو . ونلاحظ وجود (مُقق) على الجانب الشمالي الغربي لسلسلة جبال أجا التي يسكنها أكثر من ٢٢٠ عائلة وتقع عند المخرج الغربي للممر الذي يحمل الاسم نفسه ويبعد ثلاث ساعات جنوب غرب حائل ويحمل عند بلغريف اسم مجاه Magah . وإلى الشمال

غرب من هذا الموقع توجد عزبة الحُفَيْر ويوجد في سلسلة الجبال نفسها بالقرب من مقاق بين قناة ولقيطة موقع الطويه Tuweie (عند كبيرت Tueie ذات الموقع البعيد في الجبال) . وعلى بعد ست ساعات شمال غرب تقع آخر قرية في شمّر من هذه الناحية واسمها الغدامي Gadamie التي سماها كيبرت على خريطته في عام ١٨٦٤م el-Gadamie . وبناء على ماذكرناه فإن الخريطة بين حائل وقصيبة تحتاج إلى تصحيح . والمواقع هي على التوالي : عزبة السبعان التي تبعد ١٢ ساعة عن حائل ثم القرية القديمة طابة التي تبعد ٥ ساعات أخرى ثم فيد التي تبعد ٦ ساعات أخرى ثم الكهفه (٦ ساعات اخرى) وأخيراً القوارة Kauara أو Kuara التي تعتبر عند فيتسن شتاين أول موقع في القصيم ؛ أما والن فيرى هذا الموقع في القصيبة . ويذكر والن بين المستجدة والرس اسمًا صحيحًا هو سميراء ، وهو يتوافق مع ما ذكره دليل فيتسن شتاين . والخريطة من عام ١٨٦٧م صحيحة في كل أجزائها .

هذه هي إذن المنطقة السابقة لشمَّر (عام ١٨٤٥م) التي تمتد ستة أيام مسيرة جمل طولاً ومثلها عرضًا وذلك من جبة إلى الكهفة . وهذه المنطقة تنتمي للمناطق المأهولة جيدًا ويسكنها نحو ٢٠٠٠ عائلة من الشمر يين والتميميين المقيمين و٢٠٠٠ عائلة من البدو . وسنقرأ لاحقًا عن التطور الذي لحق بالمنطقة .

انتقل والن من حائل إلى المدينة (وإلى مكة ؟) ولكنه لم يترك لنا رسومات عن الطريق الذي سلكه وقاده عبر وادي نجد ، أي أيضًا عبر الحناكيّة .

٣) من البحر الأحمر (مويلح) إلى حائل ومشهد علي :

بدأت الرحلة الثانية للجواب الممتاز والن في نهاية عام ١٨٤٧م وانتهت في منتصف شهر يونيو ١٨٤٨م . وهذه الرحلة أيضًا أبرزت والن كمكتشف لمواقع لم

تقع عليها حتى عهده عين عالم أوروبي . وتوجد هذه المواقع بين الساحل الشرقي للبحر الأحمر والفرات وهي مويلح وتبوك وتيماء وحائل ومشهد علي ، أي النصف الجنوبي للمنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية . وكان والن جاب في عام ١٨٤٥م النصف الشمالي وفي عام ١٨٤٨م أضاف إلى خط رحلته الطريق الصحراوي بعد نهر الفرات .

بعد أن غادر والن القاهرة وصل الطور والشرم الواقع على ساحل شبه جزيرة سيناء ـ لاتعد سيناء من شبه الجزيرة العربية ـ ثم قطع على قوارب بدائية جزيرة تيران التي تخلو من الشجر ولكنها لا تخلو من الزهور وتقع على مدخل خليج العقبة ثم انتقل بعد ذلك إلى جزر شوشة وبريكان وجابوا ، التي زارها زوبل والإنجليزي سورفيور ووصفاها (انظر على سبيل المثال : فيلشتيدت ، الرحلات ٢ ، ص ١٤٤)، ووصل إلى مويلح الفقيرة التي ذكرها زوبل كثيراً ووصفها في عام ١٨٢٦م . وتتصف مويلح بأنها محطة لحامية تركية صغيرة تقع على طريق الحج المصري . وفي ٢٠ فبراير ١٨٤٨م غادر والن مويلح واجتاز عبر أراض مجدبة وحجرية عدداً من الوديان على الساحل وعلى طريق الحج المصري . وكان رمل النفود الناعم منظراً محبوباً لمرافقيه من البدو . وفي وادي صدر وجد والن استقبالاً ترحيبيًا في خيام البدو . بعد ذلك انتقل إلى الوديان الجبلية الشفاع وكحاله وسويكة ومُريحة عبر ممر ضيق (السلول) ثم اجتاز واد أبعد وعبر الممر الضيق السامق (نقب الصواوين) . ونوع الحجارة هنا غرانيتي وإلى الشرق توجد حجارة رملية واشجار النخيل قليلة ويوجد الكثير من أشجار الأكاسيا . وإلى الشرق من سلسلة الجبال تسمى البلاد تهامة ، وهو نفس الاسم الذي يطلق على الساحل الساحلي جنوبي الحجاز .

ويحدد والن الحدود الشرقية للحجاز على أساس خط يمتد من الطائف (شرقي مكة) عبر المدينة إلى الحجر . وإلى الشمال من هنا عند الناحية الشرقية لسلسلة جبال الشفاع وحتي وادي لِثم يوجد الحد الشرقي لتهامة . ويقدم فيتسن شتاين عرضًا دقيقًا للحجاز وكان يطَلق هذه التسمية على كل البلاد البينية الواقعة غربي أبان (جبال بين خيبر وعنيزة) إلى ذات عرق حتى الصحراء السورية . وعند فوستن فيلد (انظر كتاب : مواقع سكن وتجوال القبائل العربية) يجد المرء آراء عديدة حول الحجاز تستند على مصادر قديمة ، ومن بين هذه الآراء أن الحجاز هو الفاصل بني تهامة ونجد .

نعود مرة أخرى إلى والن : ابتداء من مرتع نقب الصواوين تهبط الناحية الجنوبية لسلسلة الجبال بسلاسة بينما تسمق الناحية الغربية إلى أعلى . ونزولاً يؤدي الطريق أولاً إلى وادي روبان ثم إلى سهل الحِسمة ذو الرمل النفودي غير المجدب ومن معان في الشمال حتى تبوك في الجنوب ومن خليج العقبة في الغرب حتى طريق الحج السوري في الشرق وإلى الشمال شرق حتى وادي السرحان ويستمر حتى النفود . والحد الجنوبي للحسمة يتصف بوجود الجبهة السامقة لسلسلة جبال جانبية لجبل حّرا تتاخم ،بزاوية تتميز بالحدة ، سلسلة جبال شقام . وعليه فإن هذا المزلاج العرضي لم يذكر على خريطتيْ كيبرت الموضوعتين في عام ١٨٦٤م وعام ١٨٧١م .

مع أن مرتفع حرّا لا يتجاوز ارتفاعه عن السهل أكثر من ٥٠٠ متر فإن اختلاف درجة الحرارة يظهر بوضوح بحيث تصل في الليل إلى درجة ٧ فارنهايت . ولذا فانه يوجد ندى غزير . ويجد المرء في هذا الموضع أمراض الصدر التي تعتبر نادرة في شبه الجزيرة العربية .

يسكـن سهل حسمة المعازة وبنو عتيبة وتمتد منطقتهم لمرافقة قافلة الحجاج من معان إلى بركة المعظم . وعشائرهم هي ربيلات وسبوت وذو جوفي وتفارة وسليْمة وعبيان وخضراء وعميرين وسعادنيين . وينتشر المعازه أيضًا بكثرة في مصر . والكل يدين بالإسلام ودرجة التسامح عالية جدًا . وفي خيمة الشيخ ابن عطيس قضى والن عدة أيام ثم انتقل عند سلسلة جبال حرّا شمال شمال بشرق إلى وادي العويْند الجاف ذو الآبار الشحيحة . وعند الحدود الشمالية للوادي كان يوجد مكان دفن موتى المعازة حيث رأي والن كمية كبيرة من الحجارة الكبيرة وأشكال باهتة لجمال وكلاب وخراف وبعض الكتابات التي اعتقد انها كتابات بدوية . بعد ذلك ترك وادي العويند واتجه يمينًا ، أي تاركًا ناحية الجنوب ، وسار شرقًا عبر ممر إلى سهل البقّر الذي يحدّه من الغرب سلسلة جبال حرّا ويتاخم شرقًا حمادة التبوك (السهل الرملي للطائف) . ويعتقد والن أن قطع طريق مستقيم من مويلح إلى تبوك لا يحتاج لأكثر من ثلاثة أيام سير .

تتصف تبوك بأنها ذكرت في عهد النبي محمد (ﷺ) وذكرها الجغرافيون القدامى الأصطخري والإدريسي وأبو الفدا وكانت في عام ١٨٤٨م قرية مكونة من ٦٠ بيتًا وتقع على طريق الحج السوري على بعد رحلة أربعة أيام من معان ومثل هذه المسافة من حجر . وتبوك موجودة في منتصف سهل حمادة التبوك الذي يحده من الغرب سلسلةَ شفاع وتكملته الشمالية ، أي سلسلة جبال الشراة ، ومن الشرق النفود ونجد . وانطلاقًا من تبوك فإن مدى السهل يبلغ من كل ناحية نحو خمس (؟) ساعات . ولما كانت التربة مجدبة فان حياة السكان بائسة . ويوجد نبع غزير في القرية وعدة آبار حولها ولكن الحبوب لا تكفي احتياجات السكان مما جعل من الضروري استيرادها من مويلح وسورية . ولذا فإن سكان تبوك كانوا يحصلون على أغذية أقل مما يحصل عليه الناس في الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية .

والأهالي يسمون أنفسهم حُميْدات ولكن بعضهم متولدون، أي ذرية أبناء السودان الذين استقروا بشكل أو بآخر في البلاد بعد انتهاء موسم الحج. وهؤلاء المتولدين لا يشكلون عشيرة وهم يرتحلون مثل البدو الرحل ويتزوجون غالبًا من ابناء جلدتهم. ويتصف المتولدون بأنهم يحبون العمل والكسب ويفضلون زراعة النخيل والحدائق، على سبيل المثال في خيبر حيث يزرعون مزارع النخيل المملوكة لفقراء عنزة ويعتنون بها. ويشكل المتولدون في تبوك الفئة الثالثة من فئات السكان وهم يعملون في زراعة البساتين والتجارة مع البدو الرحّل.

كما هو الحال في معظم المدن العربية الأخرى فإن تبوك يسودها نظام العادات والتقاليد. ويُظهر الأهالي الحضر احترامًا عميقًا للدين ويتشاور الشيخ والعقيد (العقيد هو أعلى منصب مدني في القبيلة) مع أهل الخبرة في القبيلة. أما الحامية التركية التي توجد بسبب طريق الحج في الحصن الفقير، فإنها مجردة من السلطان وتخدم كمخزن تموين للحجاج ومرافقيهم وتخضع لباشا دمشق الذي يختار دائما أمير القلعة من بين أبناء قبيلة القشيري. وهذا الامتياز منوط بالقبيلة منذ أيام السلطان سليم (سليم الأول المتوفي سنه ٩٢٦ هـ، ١٥٢٠م). ويُسلح الأمير تسعة أو عشرة أشخاص بالسيوف والبنادق. ويجب عليه تقديم تقرير سنوي حول فرقته ومصروفاتها. ويبقى الأمير في دمشق سنة ثم يُرسل قبل تحرك قافلة الحجاج الكبيرة ببضعة شهور إلى حصن آخر مما يجعل العدد القليل لأفراد قبيلة القشيري في حركة دائمة.

إن تبوك الحالية ليست مُقامة تمامًا على موقع تبوك القديمة التي هي الآن أطلال تقع على بعد أربع ساعات غرب جنوب غرب على المرتفعات التي توجد أمام جبال حرّا. ويتضح من الملاحظة أن المواقع كانت قديمًا تبنى في شبه الجزيرة العربية على المرتفعات وأصبحت تبنى لاحقًا في السهول. وربما كان طريق الحج

عاملاً في تحديد الموقع . وكانت الأطلال الأخرى توجد في قرية قرابة التي تبعد بضع ساعات غربي (ذات الحاج) . وهذا الموقع هو المحطة الأولى على طريق الحج شمال تبوك ويوجد بالقرب منه نبع جاف كان له أهمية أيام زيارة والن للمنطقة . وقد ذكّرته الأطلال بوادي موسى ، أي بالبتراء .

تحت الجبل المخروطي الذي يرتفع أعلى من حمادة تبوك يوجد جبل مخطب الذي سمى كذلك لأن النبي محمد(ﷺ) دعا منه السكان اليهود والمسيحيين إلى دخول الدين الإسلامي . ويقع الجبل على بعد خمس ساعات باتجاه الشمال الشرقي من تبوك وهو النقطة الشمالية الأقصى التي يروى أن النبي (ﷺ) وصل إليها ومنها ارسل عمرو وعلى (رضي الله عنهما) ضد أكيدر في الجوف .

تخضع تبوك لحماية خاصة من بني عطية مقابل دفعة جزية معتدلة ، الخَوَّة أو الخُوّة ، تقوّم بالأغلب بقطع الملابس أوالعمولات . ويحمي آل عطية المنطقة من أي اعتداءات عليها من القبائل الأخرى ولاسيما وأن تبوك لا تستطيع تجنيد أكثر من ٤٠ شخصًا مسلحين ببنادق الفتيل . وهذا السهل هو على أي حال واحد من أكثر الأماكن غير المأمونة في كل الصحراء .

في ٥ أبريل ١٨٤٨م غادر والن بصحبة بدويين من أبناء بلى تبوك وعبر بفضل الضباب الكثيف يرافقه الحظ السعيد السهل الخطر في الاتجاه الشمالي الشرقي بحيث خيم الجمع في الليل على مشارف جبال حرّا . وفي اليوم التالي سار الثلاثة عبر نقب درب البقرا حيث شاهد والن حجارة عليها كتابة تشبه تلك الموجودة في جوبة ووادي عويند . وفي تلك الأثناء كان صاحباه يحثانه على التقدم . وفي اليوم التالي سار عبر وادي الأخضر ـ ينطق البدو اسمه الوادي خَضَر ـ عند وادي شوش ، الذي يتحد مع وادي درب البقار ويدخل جنوب حجر في وادي نجد ، ثلاث

ساعات غربي محطة الحجاج التي تحمل نفس الاسم (أيضًا أخضر) جنوبي تبوك ووجد على بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة بئر طبيعية جميلة هي غدير الرشيدة التي يملأ المرء القِرَب من مائها الوفير . وبعد هذا الوادي ووديان أخرى ارتقى الجمع هضبة صخرية تدعى منازل الحج . ومن هنا وصلوا إلى مرتفع سلسلة جبال حرّا التي تتكون من حجارة رملية حمراء وبينها أطلال بركانية (بيّن فيتسن شتاين خطأ والن في هذا الوصف لأن الحجارة كانت بركانية Poroese و Doleritbloecke وليست حجارة رملية) . وبعد سير ثماني ساعات نزلوا غربًا إلى منطقة (جو) مرورًا بمنقع ثم إلى أرض واطئة تتدفق منها ينابيع الماء التي تتجمع من المواقع العالية . ونفس الموقع يدعى فقعة . بعد ذلك وصل المرء إلى منطقة مزروعة حيث ينبت الحرّا الذي يجفف وتحب الجمال أكله كثيرًا .

تشكل (جو) الجزء الجنوبي لمنطقة حرّا التي لها شكل مُعيّني وتكوّن مع سلسلة شفاع بين مويلح ووجه الحد الغربي للمنطقة وسهل حسمه والحزام المستعرض لسلسة جبال حرّا حدها الجنوبي . وتوجد في الشرق السلسلة الموازية لجبل شفاع وفي الجنوب الحافة الشمالية لوادي نجد . ويبلغ عرض حرّا رحلة يومين وطولها رحلة خمسة أيام . والسكان الأصليون هم بنو بلى الذين يتصفون بالثراء وبأنهم مضيافون ومحبون للحياة . أما البقية الباقية من المهاجرين من اليمن فعددهم قليل وكانوا في الماضي أثرياء إلى أن غزاهم في عام ١٨٤٧م بنوجاز من الحويطات الذين جاؤوا من وادي موسى وسلبوهم كل خيلهم وتقريبًا كل جمالهم . وفي سنوات الجفاف يذهب آل بلى مع قطعانهم إلى مناطق تصل حتى مشارف دمشق وحلب . ويحصل آل بلى عن طريق الوجه على الحبوب من قصيْر في مصر وعلى التمور من تيماء والعُلا الواقعة جنوبي حجر وعلى البن من الحجاج الذين

يجلبونه من الحجاز وعلى الملابس من سورية أو مصر . وقد بدا لوالن أن لهجة بني بلى لها قواسم مشتركة مع لهجة نجد ، على سبيل المثال الاستعمال المتكرر للتنوين . ومن الناحية الدينية يُعرف عن بني بلى أنهم سلفيون يحافظون على الصلاة والمشاعر . وذكر والن أنهم يرافقون قافلة الحجاج المصرية من دُباع حتى وجه .

سار والن مع مرافقيه من بني بلى متجها إلى تيماء . وفي أول الطريق كان عليهم السير على أرض مملوءة بالحجارة حيث توجد أحواض ماء طبيعية . بعد ذلك اجتاز الجمع مرة ثانية وادي درب البقار وذلك من الغرب إلى الشرق ثم طريق الحج السوري شمالي محطة دارالحمراء . وخلف أبو جنيب انفتح النظر على تلال رملية متموجة تزداد انخفاضًا من ناحية الشرق ؛ بعد ذلك اجتاز المرء وادي مرطة ووصل إلى سهل الخوْلة (خاله Hâla) الذي يمتد حتى القصيم . وكان السير على الأرض الجدباء يتم بسرعة . وفي ١٩ أبريل وصل الجمع إلى تيماء (عند Jesaya تسمى Thema وعند اليونان Thaèma ويذكر أو يزبيوس لفظه أدومية وأخرى عربية Teman) التي يُعدها العرب من نجد وكانت في أيام بلغريف جزءًا من دولة شمَّر . وكان ريتر أعدَّ بحثًا مفصّلاً حول تيماء القديمة . وفي عام ١٨٤٨م كان يسكن هنا ١٠٠ عائلة من شمَّر .

تمر تيماء من نوع حلوة المشهورة ويزرع فيها الحبوب والشوفان ولكن بكميات غير كافية . ويقدم نبع غزير الماء اللازم للريّ . وينزح الماء في نجد وبلاد الرافدين بجردل مربوط بحبال وليس باستعمال الساقية كما في مصر . وسنعالج موضوع تيماء بتفصيل أكبر عندما نرافق غوارماني في رحلاته .

بعد مسيرة يومين جنوب غرب تيماء ذُكر موقع عُلا (عِلا Elah) الذي لا يوجد به ماء وعددسكانه ٣٠٠ عائلة بينهم كثير من المتولدين . ويَحسب المرء المسافة

بين تيماء وتبوك برحلة أربعة أيام وإلى الجوف خمسة أيام وإلى خيبر ثلاثة أيام . ويشير بوركهاردت (الملحق ٦ لكتاب رحلات إلى شبه الجزيرة العربية) مما سمعه إلى أن تيماء «Teyme» لا تتبع لنجد ولا للقصيم وإنها كانت قبل دخول السلفيين إليها مستوطنة بدوية مستقلة ؛ وفي هذا المقام يقارن بوركهاردت « هذه المدن الصغيرة الواقعة في داخل الصحراء العربية وهي الجوف ومعان والعلا وخيبر وتيماء» مع الواحات في ليبيا .

ينتمي أغلب البدو في تيماء إلى عنزة ، وبالذات إلى عشيرة فقرا المهمة التي تسكن تيماء وتبوك وحجر وخيبر ، وولد علي وولد سليمان الذين يسكنون شرقي تيماء والبِشْر الذين يسكنون غربي القصيم (انظر أيضًا بوركهاردت : البدو) .

انطلق والن من تيماء مع أحد أبناء البِشْر كان جلب عشرين رأس خيل من حائل إلى مصر ويريد الآن العودة إلى بلاده . سار الاثنان عبر غُنيم التي تبعد ساعة جنوبي تيماء ثم اجتازا الأرض العراء سنانية ثم الخوْلة . وعند جبل برد المنفرد وجدا مخيمًا للفقرا به ٢٠٠ خيمة . ومع ان السفر كان ليلاً فإنه أمكن مشاهدة أجزاء من بلاد النفود ، وذلك على بعد خمس ساعات تقريبًا من الطريق ، تشبه صفًا من التلال يمتد من الشمال إلى الجنوب . وكان الفقرا يستقبلون والن ورفيقه بترحاب . وفي هذه الأثناء وصل بعض الرجال الذين أرسلهم الأمير السلفي ابن سعود قبل سنة إلى مصر بهدية من الخيل إلى عباس باشا . وهذا السلطان في الرياض الذي سماه والن ابن سعود لابد وأن يكون ابن ثنيان .

انطلق الجميع سوية يرافقهم شيخ الفقرا وبعض أفراد القبيلة واجتازوا الخولة ، شرق جنوب شرق ، عبر سهل رملي وتلة صغيرة ووصلوا في اليوم التالي إلى

مستنقع مفيدة وتقدموا منه إلى بلاد النفود . كان السير دون توقف ويصعد ويهبط عبر كثبان رملية ناعمة . وعند جبل من الحجارة الرملية يدعى عرفان اجتازوا مكمن ماء . وبعد ذلك بيوم اجتازوا تلة مسمى ووصلوا في أول مايو إلى الناحية الشمالية لسلسلة جبال أجا عند مقاق ومنها إلى حائل . وهذا يعني أن والن سلك بعد تيماء طريقًا التفافيًا إلى الجنوب باعتبار أن الاتجاه المستقيم عند جبل حلوان ، ثماني ساعات من تيماء ، يمكن قطعه في خمسة أيام للوصول إلى حائل .

قرر والن الذهاب من حائل إلى بغداد . والطريق الموصلة إلى هناك هي طريق مستقيمة بها ماء قليل ولكنها آمنة . وتوجد طرق أخرى في اتجاه يميل أكثر نحو الشرق وبها ماء وفير مما زاد من إقبال البدو على سلوكها . وجاء حفر الآبار وتشييد المباني على يد سليمان أو زوجة هارون الرشيد زبيدة . والسيدة زبيدة كانت محسنة كبيرة أسهمت في سلامة طريق الحج القادم من العراق . ولما كان والن ارتحل برفقه خمسة من البدو فقط فإنهم اختاروا الطريق الصعبة ولكن الأكثر أمانًا. وكان الانطلاق من حائل في اتجاه شمال بشرق عبر قرية غدامية على بعد ست ساعات من حائل ثم بمحاذاة السفح الشمالي لجبل قيسي ذو الحجارة الرملية ليصلوا في النهاية إلى سهل النفود. وإلى الغرب من هنا تنتهي سلسلة جبال أجا الغرانيتية . وجاء اجتياز سهل النفود في سبع ساعات ؛ وفي وسط السهل توجد البئر العميقة بير تيمّ . وتسكن هتيم هنا في الصيف . وبعد مسيرة تسع ساعات في اليوم التالي وصل المرء إلى البئر العميقة والمسورة جيداً (بير العطوة) وبعد يوم آخر تم عبور سلسلة التلال ذات الحجارة الرملية سيلا والتي هي المرتفع الأول منذ جبل قيسي . وبعد ثلاث ساعات تتوقف النفود ويتبعها رمل متماسك . وبعد أربع ساعات يجتاز المرء منطقة الحمطية التي تليها غربًا منطقة الحجنية التي تقع شرقًا حول لينا ذات الآبار الكثيرة

(بوركهاردت) والواقعة على طريق الحج القادم من الكوفة . واليوم التالي يقود عبر الظهير الرملي للدهناء الذي يُظن أنه الحد الشمالي شرقي للنفود ثم عبر منطقة حجارة التي تمتد حتى حدود العراق . ويذكر بوركهاردت بناء على السماع (الملحق ٦ لكتاب الرحلات) وجود بئر يبعد يوم سير عن لينا Lyne (المقصود Leina) وتسمى شبيكة «التي تحد شمر من هذه الناحية » وبئر تبعد أيضًا مسيرة يوم عن مشهد علي تسمى شبيكة Schebekka ، اي اسمين لنفس البئر .

حتى الآن كان والن ومرافقوه يسيرون من حائل راجلين أو راكبين في الاتجاه الشمالي الشرقي . ومن هذا الموقع « أخذوا نجمة القطب بين أعينهم» أي أنهم ساروا باستقامة نحو الشمال . ومنذ غدامية لم يشاهدوا أي قرية . وفي ١١ يونيو وبعد مسيرة تسع ساعات وصلوا البئر المسورة جدًا، الخازل ، وفي ١٣ يونيو وصلوا إلى سهل المجامير ثم واصلوا إلى إقليم المشيْقق حيث كانوا يأملون العثور على الماء ولكن الصيف الذي حلّ في ذلك الوقت خيّب أملهم . وهكذا تابعوا طريقهم دون أن يشربوا قطرة ماء . وفي ١٤ يونيو حصلوا على الماء المنشود من بئر صاميت ووصلوا في ١٥ يونيو مشهد علي ، أي النجف ، عند أطلال الكوفة . وكما قيل لبوركهاردت فإن هذا الطريق من شمَّر إلى مشهد علي يمكن قطعه في ثمانية أيام .

هذا هو باختصار تقرير الجواب الشاب الذي يستحق أن لايُنسى أبدًا بسبب دقته النموذجية وحبه للعلم وبعده عن تمجيد نفسه أوالكتابة للتسلية . إن جورج والن عانى من أجل أن يقدم لنا معلومات أكثر عن أجزاء من كوكبنا الأرضي .

*****

سنرافق الآن بلغريف وغوارماني وبيلي وسنقدم بيلي على غـوارماني . وكـان بلغريف قام بزيارته في عام ١٨٦٢م وعـام ١٨٦٣م ، أما غوارماني فكانت زيارته في عام ١٨٦٤م وزار بيلي وسط الجزيرة العربية في عـام ١٨٦٥م . وسيكون غـوارماني هو الأخير لأننا سنذكره مع أبحاث فيتسن شتاين .

*****

نلجأ الآن إلى الكتاب المشوّق لرحلة وليام جيفورد بلغريف الذي وصف فيه تجواله من البحر الميت ،عبر شبه الجزيرة العربية ، إلى عُمان . وسنستفيد من جزء الرحلة الخاص بهضبة وسط الجزيرة العربية وذلك بسبب عدم وجود كتب أخرى كتبها أساتذة مرموقون . وكتاب بلغريف تُرجم إلى اللغة الألمانية في عام ١٨٦٧م و١٨٦٨م في مجلدين ونشرته دار نشر ديك (لايبزيغ) .

قابلت الصحافة كتاب بلغريف بحماس . والواقع أن صياغة الكتاب جيدة تندمج فيها الثقافة مع المرح الإنجليزي مما يعطي عنه للوهلة الأولى انطباعًا جيدًا . وكل من لم يقرأ والن يصعب عليه اكتشاف الأخطاء التي وقع فيها بلغريف . وكان طموح بلغريف هو أن يكتب كتابًا علميًا وقد نجح بالفعل في إعطائنا معلومات قيمة عن المنطقة التي زارها وكانت مجهولة لنا . وسوف نرافق رحلات بلغريف ونعامل معلوماته بنفس الروح العملية التي نشدها هو لنفسه . ونحن نعرف أن الشعـور بالاطمئنان الذي يتملكنا عندما تقرأ لـ نيبور ووالن وغوارمـاني وبيلي ينقصنا عند بلغريف خاصة وأنه لم يكن يملك مثل هؤلاء الكتّاب آلات قياس الزمن وتحديد الموقع ودرجات الحرارة . يضاف إلى ذلك عدم اتضاح بعض البيانات المرتبطة بخسارة دفتر ملاحظاته في الحادث الذي وقع لسفينته (النسخة الألمانية ، المجلد الأول ، ص ٢٠٦ ؛ المجلد الثاني ص ١٦٧ ؛ المجلد الثاني ص ٢٥٩) .

ومهما يكن من أمر فإن وصفه لحياة الناس في شمّر Schomer (Schammar) ونجد وعمان يقدم لنا لمحة عن جوهر هذا الشعب واحتمال ما ينتظره في المستقبل وذلك بنظرة متعمقة تخلو من التحامل .

* * * * *

إذا صرفنا النظر عن رحلة سادلير عبر نجد التي لم تقدم لنا الشيء الكثير فإن الطريق الذي قطعه بلغريف من معان إلى شمر جاء وصفه لدى والن بتفصيل كاف . ولذا فإنه في ما يتعلق بهذه المنطقة سنلجأ إلى المعلومات الجغرافية والاثنية التي يقدمها بلغريف ثم ننتقل إلى الأقاليم التي عرفناها بدقة بجهدّ هذا الجواب ، أي أقاليم مملكة نجد : القصيم ، الوشم التي سار والن فقط عند حدودها ، سدير ، العارض وعاصمتها الرياض ، الأفلاج (؟) ، اليمامة والحريق . وحسب بلغريف تنتمي أيضًا للمملكة النجدية الأحساء (التي وجه الأتراك ضدها في عام ١٨٧١ هجومًا فاشلاً) ووادي الدواسر (الأفضل بلد الدواسر) الذي يحد الأفلاج وأخيرًا الكورة المتاخمة له . وعندي شعور أن رواية بلغريف عن الأفلاج ، التي يدعى الوصول إليها ، ليست لها أرضية صلبة وأقل منها الدواسر التي لم يصل أصلاً إليها . وطالما أنه لم يزر أيضًا الحريق فان ما يبقى من جديد من رحلته هو عدد من أقاليم القصيم واليمامة والتي هي النواة الأساسية للمملكة النجدية المتنفذة التي تبلغ مساحتها مساحة ألمانيا وفرنسا مجتمعتين .

أضاف بلغريف إلى كتابه خريطة لرحلته . وقد أضاف كيبرت على الصفحة ٢٨ من الأطلس الصغير (طبعة منقحة في عام ١٨٧١م) بدقة متناهية ليست غريبة عليه نتائج أبحاث بلغريف وبيلي وذلك على الرغم من المساحة الصغيرة للصفحة المخصصة للخريطة .

٤) من مَعان عبر الجوف وحائل والرياض إلى الخليج :

(طريق جانبي إلى الأفلاج)

كان بلغريف يسافر برفقة سوري شاب منتحلاً صفة الطبيب وفي بعض الأحيان صفة التاجر . في يوم ١٦ يونيو ١٨٦٢م بدأ بلغريف وصاحبه رحلتهما برفقة ثلاثة من البدو يرأسهم رجل من الحويطات ومعه اثنان من الشرارات .

بعد استراحة قصيرة في سهل حجري أسود تحجب وراءه سلسلة جبال الشراة الأنظار عما خلفها تابع الجمع السير والقيظ يلفحهم في مكان خال إلا من سحالي عجفاء وبعض الجرابيع . والمنظر متكرر رتيب في الصحراء ولا يقطعه إلا الانعكاسات البّراقة . وقبل ساعتين من حلول الظهر بدت بعض الأشجار المنكمشة مما نبّأ عن وجود الحفر المائية الضحلة . وكان من الضروري ملء القرَب بالماء حتى مع أنه كان موحلاً لأن أول بئر كانت تبعد من هنا أربعة أيام كاملة . وهذه الأيام مّرت مثل أحلام أيام الحمّى ؛ فقبل شروق الشمس بوقت طويل كان المرء يركب الجواد ويواصل الرحلة حتى الضحى . وفي ذلك الوقت كان الجمع يتناولون الفطور المكون من حفنة من الطحين المعجون في ماء قذر تخبز على نار تصليها الأعشاب وروث الجمال . وهذه العجينة تتحول إلى خبز نصفه مخبوز ونصفه محروق يأكله المرء ساخنًا مع جرعة ماء . بعد ذلك تقدم الجمع إلى الأمام إلى أن وصلوا قبل ساعة من الغروب إلى مكان كانوا يأكلون فيه وجبة مشابهة للوجبة المذكورة آنفًا أو يكتفون بتناول بعض التمور بسبب خشيتهم من كشف الدخان المتصاعد عند إعداد الخبز عن مكانهم . وكان البدو يحاولون إذكاء الشجاعة لدى بلغريف وصاحبه ويحثّوهما على الصبر إلى حين الوصول إلى وادي السرحان الذي

تبدأ عنده منطقة أمير شمر طلال . وكان البدو يتكلمون عن طلال باحترام عميق ولكنهم كانوا أيضًا يبدون أسفهم لتقييده « الحرية البدوية »، أي حرية الغزو .

ومن الغريب في هذا المقام أن بلغريف لم يحصل على الأخبار الأولى عن طلال بن رشيد وعن حائل مقر شمَّر من التقارير التي كتبها والن بل حصل عليها مختصرة من مرافقيه البدو عندما وصل إلى بلاد العرب . كما أنه لم يقرأ ما كتبه والن إلا بعد عودته إلى إنجلترا . ومن الغريب أيضًا أن الرحلة من معان إلى الجوف استغرقت كل هذه المدة، أي ١٥ يومًا لقطع ٧٥ ميلاً ألمانيا ، وهذا وضع غير مفهوم طالما كان الأمر يتعلق بجمال الركوب الجيدة ذات الخطوات الثابتة التي يجبرها الصيف القائظ على السرعة . ويحسب غوارماني خطوات الذلول في الساعة بـ ٨٦,٢١ متراً . ووفقًا لفيتسن شتاين فإن راكب الذلول يسير على الأرض الصلبة نحو ١٥ ساعة في اليوم .

قابل المرء في طريقه عدداً من الخيام السوداء المهلهلة يسكنها أناس من الشرارات كبار السن الذين رحبوا بالضيوف قائلين : «مرحبًا بضيوفنا المحترمين» ثم دعوهم للشرب . وفي اليوم التالي ، ٢٣ يونيو ، ظهرت تدريجيًا في الأفق سلسلة جبال زرقاء غرب ـ شرقية تنتمي للصحراء السورية ـ العربية (وكأننا لسنا في بادية الشام منذ مدة طويلة !) وازدادت رقاع الرمل والعشب . وبينما كان المرء يأمل في الوصول إلى وادي سرحان قبل الغروب هبت رياح السموم وكادت أن تقضي على حياة بلغريف وصحبه . وحسب وصف بلغريف عانى الجمع من نصف ساعة مملوءة بالمكاره : « ازدادت لفحات الهواء وحرارتها وكنا لا نقدر إلا بجهد جاهد دفع حيواناتنا إلى الأمام . وكان الأفق يتلون بلون بنفسجي غامق وبدا وكأن هناك

ستارة تغطيه من كل الجوانب ، وفي ذات الوقت كان الهواء ينفث وكأنه أنفاس تصدر عن فرن ضخم . أما جمالنا فشرعت في الدوران حول نفسها وثني ركبها رغبة منها في أن تنيخ على الأرض . كان ريح السموم قد وصلنا . » «لم يُجد إلا الضرب والوخز لتحريك الحيوانات المضعضعة إلى الإمام في اتجاه إحدى الخيام » . « كان الهواء مكربًا والحرارة مشتعلة لدرجة بدا وكأنها الجحيم . لقد وصلنا بالكاد في الوقت المناسب إلى الخيمة ، وعندما اشتدت موجات رياح السموم كنا نستلقي في الخيمة ورؤوسنا مغطّاة بأمان . أما جمالنا في الخارج فكانت وكأنها الموت وهي تمد أعناقها الطويلة على الرمال» . «بقينا على هذه الحال نحو ١٠ دقائق كنا نشعر خلالها بالحرارة المتواصلة وكأنها قضيب متوهج من الحديد ينغرز ببطء في أجسامنا » . «نهضنا ثانية ونحن نصف أموات من الإرهاق وأزحنا الغطاء عن وجوهنا . وكان رفاقي يشبهون الجثث أكثر مما يشبهون بني البشر الأحياء وربما كان هذا هو حالي أيضًا » . « طالما استمر هبوب رياح السموم فإن الجو كان يخلو تمامًا من الرمل أو الغبار ولذا فإنني لم أتمكن من تفسير سبب وجود الظلام الملحوظ وقتذاك» .

في صباح اليوم التالي وصل الرحالة إلى وادي السرحان الذي كان اتجاهه الشمال الغربي بعد الجنوب الشرقي والذي يشبه « سلّما لا تبعد نهايته العليا كثيراً عن دمشق في حوران والذي توجد نهايته السفلى في الجوف » . وهو إلى ذلك طريق التجارة المعتاد بين سورية والجوف . وينبت في الوادي الشجيرات والأعشاب التي تظل مزدهرة لفترة أطول من أعشاب المناطق الأخرى لأن المرء يجد الماء في كل مكان على عمق يتراوح ما بين ١٠ أمتار و٢٠ متراً . وحسب خريطة بلغريف فإنهم توقفوا عند بئر أوسيط Ausit (لاحقًا يذكر الاسم هكذا أويسط Oweisit وعند

والن ويسيط Weisit) . وكان السكان من الشرارات لا يملكون إلا قطعان قليلة من الغنم وقليل جداً من الخيل ولكنهم يملكون الجمال . أما جيرانهم الشماليون (؟) ، السبعة والرولة والفدعان، فإنهم أحسن حالاً . وهكذا سار الجمع إلى جانب الخيام المهلهلة والناس البائسين ووصلوا أخيراً إلى خيمة الشيخ على أمل التوقف لتناول طعام العشاء . ومع أن رئيس الأدلاء وصف الشيخ ومن حوله بأنهم من الكرماء فإن بلغريف لاحظ عندهم استخفافًا قد يخفي وراءه لمعان معدن الرجل النبيل . وعلى الرغم من هذه الملاحظة فإن بلغريف لا ينسى للحظة «التأكيد على أنه لم يتعرف في كل العالم على جنس أنبل من جنس القبائل العربية التي تعيش في شرقي ووسط شبه الجزيرة العربية . »

يتصف الشرارات ، حتى الفقراء منهم، بكرم ضيافة ملحوظ . وبفعل هواء الصحراء الصحّي ينام المرء جيداً ، ويبدأ الصباح بشرب حليب النياق وعند الظهر يُقدم العجين الأحمر المصنوع من بذور نبات (سمْح) البري الذي يزين الصحراء ويتصف بأنه نبات قصير بفروع طرية وأوراق صغيرة وبراعم تميل إلى الصفرة ويقدم قرنه كمية من البذور التي يميل لونها إلى الأحمر وهي غنية بالمواد النشوية . ويجمع الشباب والشيوخ هذا النبات في شهر يوليو ويطحنوه ويصنعون منه الخبز . كما أن شجيرة المصاعة تساعد البدو على تخفيف قلة ما هو مُتاح لهم من غذاء .

بعد أيام الراحة الطيبة اجتاز الجمع وادي السرحان الذي يبلغ عرضه ما بين ٣ و٤ ساعات وطوله نحو ٨٠ ساعة وتوجد في هذا الوادي مخيمات أخرى للبدو . وهناك شاهد المرء للمرة الأولى نبات جادة الذي تشتهر به الجزيرة العربية ويصل ارتفاعه إلى ٥ أو ٦ امتار وله فروع لا تحصى مما يؤهله لإعطاء ظلال وافرة . وهذا

النبات هو الغذاء المفضل للإبل التي تبحث عنه على يمين وعلى شمال الطريق ؛ ويستعمل البدو هذا النبات لإشعال النار .

مع تقدم الطريق بدأت تربة وادي السرحان السوداء بالتحول تدريجيًا إلى تربة صفراء مغطاة بالحصى ؛ وعلى يسار الطريق شاهد المرء سلسلة جبال الجوف وبئر مجواع العميق والمتدفق دائما . وحول الموقع يوجد مخيم بني عزام المتفرعين عن الشرارات والذين يملكون في المكان ٢٠٠ خيمة . وكان بلغريف مكث هنا يوم ونصف حتى يعثر على رئيس أدلاء جديد لأن رئيس الأدلاء الذي كان معه لا يستطيع الدخول إلى الجوف بسبب ثأر قديم مُطالب به . ومع أن الحرارة كانت في ٢٨ يونيو لا تطاق فإن النهار كان يمر بسهولة بسبب الضيافة والأحاديث الودية .

تطلبت مواصلة السير اجتياز منطقة جافة عالية شوهد فيها قطيع كبير من النعام الذي يصيده الشرارات وأكثر منهم هتيم . وكان اليوم كله خلا من نقطة ماء للشرب وفي المساء فقط حصل الجمع على وجبة متواضعة وعلى فترة راحة قصيرة ؛ وكان نصيب بلغريف زيادة على ذلك هو لسعة عقرب . وفي اليوم التالي وصلوا بعد أن عبروا تلالاً منخفضة لا تنتهي وأحد الشعاب ذو الطبقات البازلتية إلى قرية جون التي تتكون من ٢٠ إلى ٣٠ بيتًا وتعتبر ملحقًا غربيًا للجوف الاصلي . ومن هنا عبروا عند الظهر ذي الحرارة اللافحة مضيقًا وعرًا وصلوا منه عبر كتل من الصخر إلى مكان شاهدوا فجأة من فوقه الوادي المتدرج ذو الحجارة الحمراء الذي يختفي من بعيد في الأفق ويظهر في قاعه الرقع الخضراء القاتمة لأشجار النخيل ومجموعات أشجار الفاكهة وفي وسطه التلة التي عليها حصن مارد (انظر أعلاه) وبعض الأنقاض الصغيرة وسقوف واطئة بين النباتات الخضراء . وهذا المنظر كان لبلغريف أول منظر بديع يشاهده لمنطقة مسكونة منذ أن غادر فلسطين .

لم يمض وقت طويل إلا وظهر أمام الجمع فارسان ألقيا عليهم التحية ودعوهم للترجل وقدموا لهم تمرًا طيبًا من كيس كبير وماء عذبًا من القرَب التي يحملوها . قال أحد الرجلين : « لا شك أنكم تعانون من الجوع والعطش ولذا فإننا جلبنا لكم بعض التموين » . وكان الأكبر سنًا من بين الرجلين يلبس ملابس أنيقة وكوفية حريرية ذات خطوط حمراء وصفراء ويحمل سيفًا ذو قبضة فضية هو غافل الزعيم الأبيّ لعائلة كانت تحكم سابقًا المدينة واسمها حبوب وأصبحت الآن مثلها مثل غيرها من العائلات تحت حكم أمير شمرّ . وبالنظر لأنه كان السبّاق إلى الترحيب بالجوابين فإنه له الحق في أن يقبلوا ضيافته ، وهو الطلب الوديّ الذي قبله الجميع بكل سرور . ويصف بلغريف هنا غرفة القهوة وكيفية إعدادها والأشكال المعتادة لإظهار حسن الضيافة وقبولها . وقد اعطته زيارة حديقة غافل الفرصة لإعطاء وصف واضح للجوف الذي نعرفه جيداً من كتابات والن ولكن بفرق جوهري واحد هو أن بلغريف ، الذي يسمى إقليم الجوف نوع من الواحات وسهل بيضاوي كبير ، يعطيه طولاً يتراوح ما بين ٦٠و٧٠ ميلاً إنجليزيًا (١٥-١٨ ميلاً ألمانياً) وعرضًا يتراوح ما بين ١٠و١٢ ميلاً مما يعني اختلافًا مهمًا عن والن . وفيما يتعلق بعدد السكان فإن بلغريف يقدره بما يتراوح بين ٤٠ و٤٢ ألفا يوجد ٣٤ ألفًا منهم في العاصمة الجوف وفي قرية سكاكة التي تبعد عنها نحو ١٢ ميلاً إنجليزيًا (والن : ١١ ساعة ، غوارماني : ٨ ساعات) . وبسبب النقص في البيانات الإحصائية فإن التقرير يستند في جزء منه على العد التقريبي لبيوت السكن وفي جزء آخر على عدد المجندين للخدمة العسكرية والذي يبلغ في العادة عُشر مجموع السكان . وسنرى عند مرافقتنا لغوارماني أن هذا التقدير من جانب بلغريف كان عاليًا . وتوجد في المنطقة عشر قرى وعزَب صغيرة تقع كلها على الآبار ولكن بلغريف لم يزرها ؛ وماعدا جون فإنه يذكر قَارة وضراء الواقعة قرب الجوف على الطريق إلى سكاكة .

في ماعدا ذلك لا نريد متابعة حكايات بلغريف المشوقة عن مدة إقامته التي بلغت ١٨ يومًا في الجوف خاصة وإننا تعلمنا من والن ما يكفي عن هذه المنطقة. ويكفي ذكر استئجار بلغريف لمنزل في المدينة وأنه عرض بضائعه للبيع وأنه كان يومياً يحل قبل الغروب ضيفًا على مائدة العشاء لدى أحد السكان ومن بينهم الوالي الذي عينه الأمير طلال لإدارة شؤون المدينة والمحافظة على القانون والذي كان يسكن في منزل مبني من الحجارة الرمادية. وكان مما يثير الإعجاب في نفس بلغريف الأمسيات الرائعة التي تخلو من الضباب والشبّورة. كما كان يعجبه اللغة العربية الكلاسيكية المهجّئة التي كان يسمعها لأول مرة. وهذا الادعاء الأخير شكك فيه العارفون بالأمور. وفيما يتعلق بطلال فالحديث عنه جعله يتشوق لمعرفته: والواضح أن أمير شمر كان إنسانًا غير عادي.

كان من اللازم لمتابعة السير قطع مساحات النفود الرملية في هذا الوقت الحار من السنة الذي يستمر حتى موعد نضج التمور، أي حتى أول سبتمبر عندما تطلع نجمة سهيل. وهذه المغامرة التي لا يجبره أحد عليها تصل إلى «حد الجنون». وفي البداية لم يجد بلغريف دليلاً ولكن القدر أسعفه بعد ذلك بعدة رؤساء لقبيلة عزام جاؤوا إلى الجوف بقصد الانتقال منها إلى الأمير في حائل. وقد تمكن بلغريف من الانضمام إلى هؤلاء الرؤساء. وقبل أن ينطلق إلى حائل بعد ظهر يوم ١٨ يوليو حصل بلغريف ورفاقه على توصية من الوالي مرُسلة إلى طلال وصفتهم بأنهم أناس محترمون وأنهم دفعوا ضريبة دخول البلاد وتبلغ واحد وثلث تالر للفرد الواحد وأنهم دفعوا لمالكي جملين ثمنهما وأجرة خدماتهما المرتبطة بهما وذلك لمدة ١٠ أيام بواقع ١١٠ قروش، أي حوالي ستة وثلث تالر (تسعة عشر شلنًا بالنقود الإنجليزية). بعد ذلك حصل بلغريف ورفاقه على وداع حار تخلله تمنيات باللقاء مرة أخرى.

أعطى الصعود على حافة الوادي الجنوبية في اليوم التالي نظرة رائعة على الحصن والبرج والمزارع والبساتين التابعة للجوف وذلك في ضوء الصباح المائل للحمرة والصحراء المتسعة دون نهاية . وبعد ذلك بيوم سار بلغريف ورفاقه قرب التلال الرملية الجيرية التي تحيط بالتجويف ووصلوا أخيراً إلى بئر الشقيق التي يبلغ عمقها نحو ٨٠ متراً . ومن هذه البئر ملؤوا القِرَب بماء يكفيهم للأيام الأربعة التي لن يصادفوا خلالها منهلاً واحداً للمياه .

انتقل الجمع إلى النفود التي تعتبر حسب تفريعات بلغريف أكبر الصحارى الجنوبية وتبدأ شرقي اليمن ونجران (؟) وتقطع وادي الدواسر عند قلعة بيشة وتتفرع هنا إلى خمسة فروع قائمة الزاوية تقريبًا تمتد إلى الهضبة المركزية وتخترقها في بعض المواقع . ويصف بلغريف صحراء النفود بأنها «بحر ضخم من الرمال الحمراء المتحركة التي تتجمع لتشكل صفوفًا لامتناهية من الجبال تسير بموازاة من الشمال إلى الجنوب وتتموج التلة بعد الأخرى وتعلو الواحدة منها من ٢ إلى ٢٠٠ متر . » وللأسف فإن هذا التحديد من بلغريف للنفود هو خيال أكثر منه حقيقة . والواقع أنه كان ينبغي عليه أن يقرأ والن قبل ذلك لكي يتجنب أخطاء واضحة عند الحديث عن اليمن ونجران وقلعة بيشة . ويتابع بلغريف قوله : « وفي المنخفضات بين هذه التلال يبدو الرحالة وكأنه مُلقى في خندق رملي تحيط به الأسوار المحترقة ويشاهد في الأعلى بحر نيران واسع . إذ لا وجود لظلال أو هدوء للعين أو للأعضاء من تدفقات الضوء والحرارة . » « وكانت الملابس والسروج لها رائحة الأشياء المحروقة وكان الماء ينقص من الحرارة أكثر مما ينقص من الشرب . » «لو استمر هذا للأبد فإن هذا يعني أن المكان هنا هو الجحيم » ، وهذا القول الموجه إلى رفيق بلغريف لم يجد اي جواب عليه . كما ان حيوية البدو المتأججة وجدت نهاية لها ؛ فلو نفد الماء قبل الوصول إلى الناحية الاخري من النفود فان ذلك يعني الموت .

وهكذا مضت الأيام، وتقريبا الليالي، بنفس العمل ودائمًا نفس المنظر ونفس الجدب. وكانت ساعات الراحة تزدادقصراً لأن المهم هو التقدم إلى الأمام لإنقاذ النفس من الهلاك. وفي اليوم الثاني شاهد الجمع عند الغروب ذروتين منفردتين من الغرانيت الأسود لهما شكل هرمي. ولأن المرء قطع ثُلث المسافة من بير شقيق حتى شمَّر (يسميه بلغريف Schomer) فإن المقصود بهاتين الذروتين هو عُلَيْم وتركي عند والن. وعند منتصف الليل تابعوا السير مهتدين بالنجوم ـ ساعة بلغريف الوحيدة ـ دون التوقف عند الموقعيْن ولم يتوقفوا إلا عندما طلعت نجم الصباح تحت الثريا مباشرة. ومع ذلك فإنهم تابعوا السير بسرعة قبل شروق الشمس وشاهدوا وهم على جبل رملي ذورتيْ جبلين زرقاوين في الأفق البعيد هما جبل جوبا وحدّ جبل شمَّر. ثم انقضى يوم وليلة ونصف يوم قبل أن يصلوا إلى الجبل بعد أن قابلوا في الطريق فرقة من ٦٠ فارسًا مسلحًا ينتمون للفرق المسلحة التي يرسلها طلال ضدَ الغزوات البدوية بالقرب من تيماء. وفي قرية جوبا تمتع المرء بشرب الماء. ولما كان دليل بلغريف من سكان المنطقة فإنه استضاف بلغريف بترحاب بالغ. وهذه القرية وسكانها وبساتينها الممتزجة الألوان ذكّرت بلغريف بالجوف على الرغم من خلوها من الأبراج.

ابتداء من هذا الموقع تحول الطريق إلى الأفضل واتصفت التربة بالتماسك ووجود النباتات. وفي نهاية هذا اليوم ارتاح الجمع وتمتعوا بوجبة طيبة. وفي اليوم التالي برز جبل شمَّر ـ أو كما يقول بلغريف السلسلة التي كانت تسمى سابقًا سلسلة أجا ـ الذي هو «كتلة ضخمة من النتوءات والحجارة وبينها الوديان الخضراء». وهكذا وصلوا إلى قرية قنا الجميلة الواقعة بين المزارع والآبار والتي يتميز أهلها بالضيافة المؤدبة. ويوجد طريق بين الصخور السامقة يؤدي إلى قرية

لقيطة التي يبلغ عدد بيوتها ٤٠٠ بيت وعدد سكانها ٢٠٠٠ نفس . وهذه الأوضاع تقدم انطباعًا جيدًا عن حكومة هذه البلاد التي بخلت عليها الطبيعة بأشياء كثيرة . والآن يبرز فوق النتوءات الصخرية الحمراء للجبل شِعب يمكن الدفاع عنه بسهولة ويعتبر الطريق الوحيد الذي ينزل إلى السهل الذي تقعَ فيه العاصمة حائل Hail، أو كما يكتب بلغريف Hajel .

بدت حائل فجأة وهي تلمع في ضوء المساء وتبرز من السهل الكبير المحاط بالجبال ناضرة ولطيفة بسورها الذي يعلو ٢٠ مترًا وأبراجها الحصينة وبواباتها الكبيرة وبرجها البيضاوي المتين الملحق بالقصر والذي يصل ارتفاعه إلى ٧٠ مترًا . والمدينة خضراء في كل مكان ويوجد حولها عدد من البيوت المنفردة والحدائق وقرى عند فتحات شعاب الجبل . وهذه المنطقة كانت تمتلئ حيوية ويسكنها ٣٠ ألف نسمة (دليل فيتسن شتاين ٤ - ٥٠٠٠نسمة) . وباختصار فإن المرء ترك أخيراً الصحراء خلفه وانتقل إلى المدينة العربية وابتهج مشكوراً بهذا التغيير .

مدينة حائل لها شكل مدوّر في اتجاه الشرق بغرب ويوجد داخل أسوارها المحيطة بها حدائق مهمة . وعلى مسافة ليست طويلة من بوابة المدينة الشمالية يقع في ميدان مفتوح قصر الأمير ذو الجدران السميكة بعلو ٣٠ مترًا تقريبًا وطول يتراوح ما بين ٤ متر و٥٠٠ متر ويوجد في أطراف الجدران العليا فتحات تذّكر بكوى إطلاق النار أكثر مما تذكرّ بالنوافذ . كما يبرز على طول الجدار شرفات حصن نصف مدورّة . وعند هذا الجدار الرئيس مباشرة تمتد دكةّ طويلة من الحجارة والتراب يرتفع في وسطها مقعد عال يجلس عليه الأمير في اللقاءات العامة . وعلى الناحية المقابلة للقصر كان يمتد صف من مخازن البضائع المغلقة ومخادع مخصصة لضيوف الأمير لأن الأغراب لايُسمح لهم بالإقامة في القصر . وكان

يوجد في هذه الناحية الجامع الكبير الذي يشكل الزاوية مع ساحة السوق التي تبدأ عند تلك النقطة . ويفصل أحد الأبواب الشارع الرئيس عن ساحة السوق ويؤدي باب آخر للقصر إلى مكان السكنى والحدائق الواسعة المملوكة لعم الأمير (عُبيد) الذي يتصف بالتشدد .

كان يقف حول بوابة القصر خدم يلبسون ملابس داخلية بيضاء تعلوها سُترة سوداء ويمسك بعضهم بعصي طويلة مغطاة بالفضة والبعض الآخر بسيوف لها مقابض فضية . ويجلس على الدكك مواطنون كثيرون يلبسون ملابس حسنة المظهر ويجلس معهم ،بدون تفرقة ،عمال أفظاظ . أما بدو الشرارات وهتيم الفقراء فإنهم يحشرون أنفسهم حشرًا ويبدو عليهم الانزعاج الواضح . « اقترب منا رجل نحيف متوسط القامة وله ابتسامة ودية . وكانت ثياب الرجل جميلة وبسيطة وبيده عصا طويلة مزينة بحلقات فضية وله طريقة وقورة في التحية ويتميز شكله باللطف والنبل . وهذه الصفات أوحت بأنه أحد أعوان الأمير المقربين . واسم هذا الرجل سيف وهو مسؤول عن القصر وعن استقبال الأغراب وتقديمهم إلى الأمير» .

كاد حادث مشؤوم أن يكشف حقيقة بلغريف . فأحد الموجودين قرب القصر كان في دمشق قبل شهور وتعرّف على بلغريف . ولما كان بلغريف لا يريد الظهور كأوروبي فإنه أنكر ما قاله الرجل وبالتالي مرّ الحادث بسلام . بعد ذلك سار معه سيف عبر البوابة بمحاذاة صف من المسلحين العرب ، وبعد اجتياز ساحة صغيرة توجد فيها تسع مدافع دلفا إلى ساحة ثانية يوجد فيها غرفة القهوة ـ غرفة الاستقبال ـ التي تبلغ مساحتها ٨٠ متر طول و٣٠ متر عرض ولها ست أعمدة كبيرة يعلوها سقف منبسط . وبعد الوصول إلى الساحة الخارجية شاهد الحاضرون الأمير

يقترب: كان الأمير عريض المنكبين متين البنيان له وجه لونه أسمر قاتم وشعر أسود طويل وعيون سوداء نفاذة وسيماء حازمة أكثر منها ودية تعطيه عمراً يزيد عن عمره الحقيقي الذي يبلغ ٣٨ سنة. كانت خطوات الأمير متوازنة وكان يلبس رداء طويلاً مصنوعًا من الكشمير وفوقه سترة ناعمة من شعر الجمال وعلى الرأس كوفية حريرية مطرزة بالذهب وعليها عقال من شعر الجمال والحرير الأحمر. كان الأمير يحث الخطى والعيون متعلقة به وبخطواته السريعة وببهاء عيونه التي تشبه عيون الصقر. كان يسير على يمين الأمير أمين الخزانة زامل الذي قربه والد طلال إليه بسبب كفاءته ورفع من مكانته الاجتماعية الدنيا إلى درجة عالية هي الثانية بعد الأمير مباشرة. ويدير زامل الشؤون المالية بعناية واستقامة فائقة ولم يكن له حاسدون. وعلى يسار الأمير كان يسير مستشاره المقرب لديه عبدالمحسن الذي يتصف بأنه متعلم ومفكر وودود. وكان بلغريف يقدر الرجلين تقديراً عاليًا.

وعلى الرغم من درجة التشويق العالية لما كتبه بلغريف أثناء إقامته في حائل من ٢٧ يوليو حتى ٨ سبتمبر فإننا نجد أنفسنا مضطرين في ما يلي للاختصار في تقريره المسهب.

كان التطبيب الذي يمارسه هتيم من التقاليد الموروثه التي أعطتهم سمعة طيبة بين العرب. وقد استفاد بلغريف من هذا الوضع واستأجر بيتًا كان يطبب منه مع السوري بركات بعناية وفي أغلب الأحوال بنجاح باهر. وهذا العمل أتاح لبلغريف فرصة دراسة سلوك فئات السكان المختلفة، على سبيل المثال ما فعله الشاب المريض جداً الذي زاره بلغريف في بيته لعلاجه والذي أصّر على القيام بواجب الضيافة أولاً؛ أو الشكر والتعلّق الذي أبداه الابن الأكبر لطلال واسمه بدر عندما

عالجه بلغريف من الحمّى والذي « أظهر أكثر من الأطفال الآخرين وحتى النبلاء منهم مدى ما يتمتع به من عادات مؤدبة وتربية يحسده عليها أبناء النبلاء في أوروبا » . وعلى الجملة فإن الناس في حائل كانوا يتمتعون بالحياة الآمنة وكان الأمن مستتبًا في الأسواق والطرقات والعدالة الاجتماعية متوفرة وحكومة البلاد ذكية ومستنيرة . كما كان الأمير يتصف بالتروي والتسامح في ممارسة الشعائر الدينية إلى درجة أن بلغريف المعروف بأنه مسيحي كان يحضر صلاة الجمعة دون أن يثير حضوره أي استنكار . يضاف إلى ذلك ما وجده لدى الناس من أخلاق حسنة أثناء الزيارات المتبادلة معهم وتلك الساعات المسائية الجميلة التي كان يقضيها في الحدائق أو على أسطح المنازل وأخيراً المرّتيْن التي قابل خلالهما الأمير وكسب فيهما ثقته ووده ومساعدته . وهذه القائمة مختصرة جداً للصور الحيّة والمناظر التي جمعها بلغريف خلال إقامته في عاصمة الشمريين .

ونود هنا إيراد الإحصائيات التي ذكرها بلغريف حول المملكة الفتية . ففي الأقاليم الخمسة عدّ بلغريف في ١) جبل شمر ٤٠ مدينة وقرية و١٦٢ ألف نسمة و٦٠٠٠ محارب ، ٢) الجوف : ١٢ قرية و ٢٥ ألف نسمة ، و٢٥٠٠ محارب ، ٣) خيبر : ٨ قرى و٤٠ ألف نسمة و٢٠٠٠ محارب ، ٤) القصيم : ٢٠ قرية و٣٥ ألف نسمة و٢٥٠٠ شخص قادر على حمل السلاح ، ٥) تيماء : ٦ قرى و١٢ ألف نسمة و ١٠٠٠ محارب .

والقبائل البدوية الخاضعة هي : ١) شمر ٨٠ ألفا ؛ ٢) الشرارات : ١٠ آلاف ؛ ٣) الحويطات : ٢٠ ألف نسمة ؛ ٤) بنو عطية : ٦٠٠٠ نسمة ؛ ٥) معازة : ٤٠٠٠ نسمة ؛ ٦) طـّيء : ٨٠٠٠ نسمة ؛ ٧) وحيدية : ٨٠٠٠ نسمة .

المجموع : ٤٣٠ ألف نسمة مع ٣٠ ألف محارب .

* * * * *

يذكر بلغريف أسماء قرى بالقرب من حائل مثل قفار وعدوة ودلهمية وموجاه. وهذا القرى لم يزرها هذا الجوّاب ولذا فإننا نغادر الآن المدينة المضيافة ونتجه برفقه بلغريف وعدد من رجال منطقة القصيم أولاً نحو سلسلة جبال أجا في اتجاه الشرق ثم نتوجه بعد ذلك إلى الجنوب شرق عند النبع الجميل المسمى عين التجاجة . وعند الجبل الأخير من سلسلة جبال سلمى Selma (Solma) عبر الجمع منطقة يوجد فيها قبر النموذج العربي للخير والكرم وهو حاتم الطائي الذي تقول الأسطورة المروية عنه أنه عاش قبل النبي محمد (ﷺ) بمائة سنة . وبعد وصول بلغريف وصحبة إلى إقليم القصيم الأعلى الذي يشبه الهضبة ولا يزال يتبع شمر كانت المحطة الأولى لهم هي فيد القديمة الواقعة في التجويف الرملي حيث يعمل أحد السكان كمشرف عليها . وكان طلال يمنح بعض الأقاليم التابعة له درجة عالية من الاستقلال . وفي الحالات الاستثنائية كان يأتي ممثل له من حائل له صلاحية تعديل وتغيير قرارات لجنة الإدارة والمحكمة المحلية التي تتشكل من المشرف والقاضي وبعض الأهالي . فشبه الجزيرة العربية يسود فيها النموذج الأبوي في تشكيل الدولة والأمة وهي تختلف كثيراً عن بلاد الفرس وعن الإمبراطورية العثمانية في ما يتعلق بتمتعها بالحكم الذاتي الواسع .

يوجد في القصيم الأعلى نحو أربعين مدينة وقرية بعضها شيّد حديثًا ويتراوح عدد سكانها ما بين ٥٠٠ و٣٠٠٠ نسمة . وتتميز فيد ببيوتها البسيطة وحدائقها المروية جيدًا وهي تقع على تلة رملية . وتمتد المنطقة وبساتينها على مجموعة من الآبار يبدو أن الماء يأتيها من الشرق . وتنبت قرب مناهل المياه وبكثرة نباتات القرع والبطيخ والخضر والذرة والنخيل والدراق والمشمش ويوجد في كل مكان شجيرات وأشجار ومنها الطلح ذو الأوراق المستديرة والثمرة الصغيرة والفروع

الطويلة وشجيرة نبعة التي هي من نوع سدر الأكاسيا الرقيقة والأثل الذي يذكرّ بالمَلزَ . وما عدا ذلك لايوجد في المنظر ما يلفت النظر : فالطريق كان على وتيرة واحدة ولكنه سالكًا والهواء الذي يهب من الشرق كان عليلاً . يضاف إلى ذلك الاستقبال المضياف في كل مكان وخاصة في قيفه (خليفة) التي يبلغ عدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة وحفر أهاليها حديثًا بئرًا وسوّروه . وبالقرب من الموقع كان يوجد مخيم لبدو شمّر من عشيرة عيد الذين وجد الجوابون عندهم استقبالاً وديًا . كما جرى الترحيب بهم في قصيبة (ذكر والن أنها أول موقع في القصيم) الغنية بالبساتين والآبار ، وفي اليوم الثالث بعد فيد وصلوا الموقع الشبيه بالمدينة واسمه الفوارة (توارة عند فيتسن شتاين) الذي يقع في تجويف مكسو بالأشجار وهو آخر محطة جنوبية في منطقة حكم طلال . وتنحدر الهضبة الجنوبية للمنطقة فجأة عدة مئات من الاقدام مما يتيح إلقاء نظرة على إقليم القصيم الأسفل الذي يتسم بالخضرة وتنتشر فيه القرى والمدن والطرق . ويمتد هذا الإقليم من هنا من الشمال إلى الجنوب بعرض ٦٠ ميلاً (إنجليزيًا) وبضعف هذا الرقم طولاً ليصل إلى سلسلة جبال طويق البرّاقة باللون الأزرق والتي هي أول جبال مملكة السلفيين القوية الممتدة من الشمال .

تتميز هذه البلاد المنبسطة بوجود المَرَاقب التي تمتد من مكان إلى آخر حتى سلسلة جبال طويق وتستخدم كوسيلة للحماية والمراقبة ضد غارات البدو . والقصيم اسم عربي قديم جداً ومشهور : فقبل عهد النبي محمد(ﷺ) كانت توجد مملكة غسان في الشمال ومملكة الحيرة في الجنوب وتتجمع القوى القومية في وسط البلاد ، وفي الغالب ، تحت نفوذ القصيم . وتربة القصيم أحسن مما يظن المرء واذا ارتوت النباتات بما فيه الكفاية فإنها تنمو وتزدهر بحيث يزرع القمح حتى

عارض والمدينة المنورة . وفي الخريف عندما تصل الرطوبة إلى أدنى مستوياتها يكون أعلى ارتفاع للمياه بين منسوب الماء والحجر الذي يوجد على حافة البئر هو ٦ أمتار . وقال الناس لبلغريف إن المياه في الشتاء تفيض عن حافة البئر وتشكل بحيرات صغيرة ؛ وطعم الماء مالح نسبيًا . والبلاد في جملتها منبسطة ولكن يوجد فيها تلال وينبت فيها الأثل وكان ينبت في المنحدرات نبات الخرطة ذو الأوراق العريضة الذي يستعمل في الدباغة، ونبات القتاد ذو الأشواك الذي تبتهج الإبل بأكله . وتتصف شجرة النخيل في القصيم بأنها ممتأزة وتشكل ،كما في كل مكان في شبه الجزيرة العربية ، ثروة وخبز السكان يحيث تكفي بضعة أشجار منها لتغذية عائلة من الفقراء . وعندما يكون الريّ كافيًا فإن أصنافًا جيدة النوعية تنبت في القصيم أيضًا ومنها الحبوب والذرة والذرة البيضاء والبطيخ والخضر وأيضًا القطن . إضافة إلى ذلك كان يوجد بالقصيم مصنوعات أوروبية ومصرية ، على سبيل المثال شاهد بلغريف علبة إشعال فوسفورية مستوردة من فيينا . وكانت تجارة نشطة للقصيم قد سادت في السابق مع دمشق . ولم يعد الطريق إلى هناك يمر عبر شمّر بل عبر الطريق الأسهل ، أي عبر خيبر على طريق الحج . ويتصف أهل القصيم بأنهم تجار أذكياء ، وبسبب ارتباطهم الطويل مع مدينتي النبي(ﷺ) فإن عقيدتهم الإسلامية أعمق من عرب وسط الجزيرة الآخرين وحتى قبل مجيء الدعوة السلفية .

ونذكر أخيراً أن القصيم يوجد بها الحمى بسبب انخفاضها . فجبال القصيم قليلة . وكان دليل فيتسن شتاين حامد ـ كان هذا الدليل شيخًا من الرحى في القصيم ولم يكن سلفيًا ـ لم يشر لفيتسن شتاين إلا إلى مخروط أسود جميل وعالٍ يسمى ساق .

سار بلغريف بعد ذلك إلى بلده العيون وذلك لتناول طعام العشاء في بيت احد المسافرين معه الذين بلغ عددهم ثلاثين شخصًا . وقدر بلغريف عدد سكان البلدة بـ ١٠الاف نسمة (!) ؛ وكان تقدير غوارماني لهذا العدد لايزيد على ١٥٠٠ نسمة . وتتصف العيون بأهميتها لوقوعها على ملتقى طرق في وسط الجزيرة العربية وهي محصنة تحصينًاجيدًا نسبيًا وبها قلعة واسعة وعدد من المَرَاقب التي يذكّر شكلها بمداخن البخار . وكان مضيف بلغريف واسمه فليح سبق الجمع إلى بيته الذي يحيط به مزرعة نخيل كبيرة وجميلة ثم استقبلهم عند وصولهم أحسن استقبال وهو يلبس ثيابًا احتفالية جديدة وقدم لهم في مزعته أطيب أنواع الطعام .

يورد بلغريف في هذا المقام إشارة إلى الأخطار المحتملة التي قد يواجهها الرحالة الأوروبي في شبه الجزيرة العربية ويؤكد أن الرحلة لا تشكل للمسيحي ، حتى في البلاد النجدية ، أي خطر . فالعربي القح أنبل من أن يسأل عن عقيدة الآخرين وكلمته الرئيسة هي : الدين لله . وبالطبع توجد مناطق في جنوب غرب الجزيرة العربية تفتقد لمثل هذا الأمن ؛ ومهما يكن فإن المراكز التجارية تخلو من التحامل . ومع ذلك فإن بعض العرب ينظرون بعين الريبة للرحالة الأوروبين خشية من أن يكونوا عملاء . ويشير بلغريف إلى رواية جوّاب عالم من أوروبا كان في المنطقة قبله بسبع سنوات ، أي في عام ١٨٥٥ ، وقتل في أطلال الدرعية بتحريض من فيصل . والغريب أن بلغريف ـ على غير عادته ـ لا يذكر اسم هذا الجواب ، كما أنني لم أتمكن من العثور حتى ولو على إشارة حول هذه الشخصية المزعومة . هل هي أسطورة ؟ ولماذا لا يعرف إلا بلغريف عن هذا الرجل ؟ هل كان لدى بلغريف وثائق خاصة بهذا الجواب؟ .

ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإننا نود العودة إلى بستان فُليحْ . فبعد نوم أربع ساعات في العراء استعاد الرحالة قواهم مما مكنهّم من مواصلة رحلتهم . وبعد

مسيرة استمرت ساعات طويلة وسط نباتات القرية الكبيرة الغاط وبالقرب من مَرَاقب التلال وصل الجمع بعد ١٢ ساعة من الانطلاق من العيون إلى مشارف الدويرة حيث استراح الجمع تحت ظلال الأشجار، في حديقة يملكها أحد المسافرين ، مع بلغريف من حرارة الطريق وغبارها . وبعد نحو ساعة ونصف سارالرحالة أمام الأسوار المتينة وشرفات المدينة المهمة بريدة (Boreida (Boreda التي يوجد فيها برج سميك بعلو ١٠٠ متر ومئذنة بعلو مماثل وتقع في غابة كثيفة من أشجار الإثل . وكان بلغريف يأمل في البقاء مدة قصيرة في المدينة . وهذا الأمل لم يتحقق لأن حرب النجديين ضد عنيزة القريبة منعت من عثوره على دليل يأخذه إلى الرياض ، وذلك على الرغم من توسط الوالي النجدي (لم يكن هذا الوالي من الأهالي كما هو الحال في شمّر) لصالحه . ويشاء القدر أن يعثر بلغريف على شخص يدعى أبو عايشة ثبت أنه شخص منفتح وودود ، وكان أبو عايشة جاء من مكة مع قافلة الحجاج الفارسية ويود الذهاب إلى الرياض للحصول من البلاط الملكي على ترخيص بالعمل كدليل للحجاج من أبناء بلاد فارس .

استغل بلغريف فرصة وجود متسع من الوقت حتى موعد السفر للتعرف على مدينة بريدة المبنية بشكل منتظم ولكنها تعطي انطباعًا بالتدهور . ووفقًا لمعلومات عالم النباتات الألماني الذي زار المملكة النجدية واسمه شيمبر فإن عدد سكان المدينة بلغ في عام ١٨٣٦م نحو ٦٠٠٠ نسمة . أما بلغريف فيقدر هذا العدد ما بين ٢٠ و٢٥ ألف نسمة ويقدر عدد سكان عنيزه بـ ٣٢ ألف نسمة . وبخلاف الجوف وجزء من حائل فإن البساتين لا توجد في بريدة داخل الأسوار بل خارجها . أما عنيزه الواقعة على مسافة غير بعيدة في الاتجاه الجنوبي الغربي فإن بساتينها كانت تقع خارج الأسوار . وكانت المدينة تملك صفًا من الأسوار حول البساتين .

كـان سوق مـدينة بريدة يزدحـم بالناس في فـترة قـبل الظهـر، والسـوق به طرق مقسّمة حسب المهن وفيه كـميات كبيرة من الملح الصـخري الشـديد البياض الذي يأتي من غـرب القـصيم . وفي أكـبر سـاحة في المـدينة كـان يوجد الجامع القـديم وقاعات مفتوحة يذهب إليها المواطنون ويتجاذبون أطراف الحديث . وفي ذلك الوقت كـانت الأحـاديث تتـركـز على الحـرب الدائرة بين عنيـزه بقـيـادة زامل والنجديين .

يقول دليل فيتسن شتاين إن مجال اختصاص القضاء في المدينة يمتد لأكثر من ثلاثين قرية وإن فارس الذلول الذي ينطلق مبكرًا من بريدة يصل عنيزة عند العصر أي حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر .

وعلى الرغم من الجو الحار فإن ساعات الصباح في القصيم كـانت ، كما هو الحال في جزيرة العرب عمومًا وعلى العكس من الحال في الهند ومصر ، صافية وباردة . أما المساء فكان الأصيل يملؤه بالأشعة المتلألئة الرائعة والتي تستمر حتى بعد الغروب بثلاث ساعات .

ولأن إقامته طالت ،بسبب عراقيل كثيرة، إلى يوم ٣ اكتوبر فإن الرحالة زار قريتي أشا والمذنب (انظر أعلاه لدى سادلير) المبنيتان بنقاء ولطف ويسكنها أناس متوسطو الحال. وكل الملكية في المدينة خاصة ولا وجود لملكية الدولة أو للسادة الكبار . وكانت أعداد الجمال والخراف كثيرة وعند أهل المدينة خيول ولكن المرء لم يشاهد أبقارًا . وحسب تقرير غوارماني فإن بريدة تتصف اليوم بأنها سوق خيل مشهور .

تبلغ الزكاة عشر ربع كل إنتاج الفاكهة ، ومن الممكن أن ترتفع هذه النسبة إلى الثلث إذا مـا أعلن الجـهـاد . ويدفع الرعـاة زكـاة على الأنعـام تبلغ واحد من ثلاثين

ويخضع استهلاك السمك للذكاة ، كما أن صاحب رأس المال يدفع الزكاة اثنين ونصف في المئة إلى الحاكم. ويجدر القول أن الأمن والنظام مستتب بفضل جهود الحكومة النجدية التي أبعدت كليًا كل أثر للّصوص الذين كانوا يعيثون في الماضي في البلاد.

حاول بلغريف دون نجاح الوصول إلى عنيزة (Oneza (Aneize . وعلى أي حال فإنه رأى منها السد الأرضي المحيط بها ومآذنها والمزارع الخضراء في المناطق المحيطة بها . وحسب شيمبر كان عدد سكان المدينة في عام ١٨٣٦م نحو ٢٥ ألف نسمة . وفي عام ١٨١٩م زارها سادلير وكانت آنذاك تعاني من الخراب الذي أصابها على يد إبراهيم باشا. والمدينة مهمة بسبب موقعها كنقطة التقاء للطرق.

في ٣ أكتوبر تواصل السير إلى « عرين الأسد» : الرياض عاصمة السلفيين . ويؤدي الطريق إلى حدود إقليم الوشم Woschem (والأصح Waschm) عبر إقليمْ سدير والعارض. وكان يمكن للمرء التقدم في طريق مستقيم عبر شقراء (ذكر شيمبرز أن عدد سكانها في عام ١٨٣٦م بلغ ١٥ ألف نسمة) عاصمة الوشم (وليس Wurhum كما ذُكر خطأ عند بيلي على الصفحة ١٧٦ في مجلة الجمعية الجغرافية المجلد ٣٥، والراجح أن الخطأ مطبعي) إلى وادي حنيفة الذي تقع فيه الرياض . وبسبب القوات التي كانت آنذاك تتدفق على المنطقة فقد اختار أبو عايشة الطريق الأبعد المتجه شمال شرق إلى الزلفي Zalfa (Zulfa) ثم جنوب شرق عبر سدير وجنوبًا إلى العارض. والطريق المباشر كان سيقود من شقراء عبر جبال طويق وعبر أشيقر والمجمعة وحرمة وثرمداء والعيينة إلى المَلْقا ، أي الطريق التي تقدم عليها

إبراهيم باشا في يناير وفبراير ومارس ١٨١٧م وهو يسفك الكثير من الدماء من اجل احتلال الدرعية . وفي مَلَقا التقت طريق بلغريف ثانية مع هذا الطريق القادم من الوشم . وسوف نتعرف أكثر على هذا الطريق لاحقًا عند الاستماع إلى دليل فيتسن شتاين .

نسير الآن في ليلة ذات جو بارد وضوء قمر صاف عبر تلة رملية بالقرب من بريدة . وبعد استراحة قصيرة في قرية الرويضة ، حيث بساتين الوالي الكبيرة التي يوجد بها أشجار التين والبرتقال ودروب بين الأشجار والأحواض والخنادق المسورة ، نصعد قبل الظهر مجدداً على الهضبة التي لا تزال تتبع القصيم ونشاهد منها منظراً واسعًا للجبال المكسوة بالعشب . وعند المساء لاحظ المرء وجود رمل النفود تحت الأقدام . ومع أن خطوط الرمل كانت ذات عرض أقل من النفود السابق فإنها كانت لاتقل عنه خطورة . ووفقًا لفيتسن شتاين فإن هذا الجزء هو القاع الرملي للرمم (انظر أدناه) . ووفقًا لبلغريف فإن هذا القطاع هو الأطول ويمتد على كل سلسلة الطريق الجنوب غربية ويشكل الحدود الجنوبية للقصيم ويقطع زاوية من الوشم ويفصلها بعد ذلك عن سدير ثم يضمحل في السهل الحجري الكبير الذي يشكل ناحية الشمال الشرقي لجزيرة العرب في اتجاه الشط . وفي قلب هذا القفر الصعب كان يوجد التجويف ، الذي يشبه فوهة البركان ، للحجر الكلسي لقرية وسيط الصغيرة التي هي واحة بين الأقاليم الثلاثة القصيم وسدير والوشم . وقد دعا المسؤول في القرية الرحالة إلى بستانه حيث خففت ظلال أشجار التين الضخمة وماتناولوه من بطيخ وتمور من قيظ الظهيرة اللاهب . وعند المساء ذهبوا إلى المدينة التجارية ذات الأهمية (الزلفي) التي شاهد المرء خلفها سور الطويق السامق . وكانت هذه النقطة تعتبر وسط جبال جزيرة العرب أما ما خلفها فكان يعنى بدء رحلة العودة .

وهكذا ترك المرء النفود وراء ظهره وظهر تحت قدميه الوادي الكبير الذي يبيّن بشكل رئيس حركة السير بين نجد والشمال . ولا تتبع مدينة الزلفي أي إقليم من الأقاليم الثلاثة وهي مسجلة على قائمة سجل الفرق النجدية التي عليها تقديم ٦٠٠ مسلّح . وتعاطف أهالي المدينة يتجه أكثر للنجديين وهم أقرب لسدير منهم إلى تجار القصيم وتجار الحبوب في الوشم . والمدينة ليست فقط مكان تجمّع للتجارة في الشمال بل هي أيضًا مركز عسكري مهم باعتبار أن الوادي يرتبط مباشرة بوادي حنيفة . وعلى هذه الطريق قاد الأمير السلفي سعود في بداية القرن قواته للهجوم على مشهد علي وكربلاء اللتان يحيطهما الشيعة بإجلال خاص .

عند بوابات المدينة زار بلغريف مخيمًا لهتيم الرحّل . وخلف المدينة اتجه الرحالة وهم في الوادي إلى الجهة الجنوبية الشرقية بحيث كان النفود يقع يمينًا وجبال طويق وإقليم سدير شمالاً . وكان الهواء المنعش ييّسر من عناء الرحلة . وعند نتوء جبلي يدعى خشيم تفرّع الطريق بحيث اتجهت التكملة جنوب جنوب شرق إلى شقراء عاصمة الوشم واتجه الطريق الآخر جنوب غرب إلى النفود والقصيم . وقد تابع الرحالة سيرهم في زاوية حادة في الاتجاه الشمالي الشرقي ووصلوا بهذه الطريقة إلى سلسلة جبال طويق الأصلية .

يتصف هذا الطويق بأنه الجزء الجوهري لمرتفع نجد العمودي وهو مرتفع كلسي واسع أكثر منه سلسلة جبلية وله شكل هلالي يقع وسطه في إقليم العارض ويقع قرنه الشمالي الأقصى في سدير ويشتمل قرنه الجنوب غربي ، منظورًا إليه من الوسط ، على الوشم وفي اتجاه الغرب على منحدر القصيم . ويقدر بلغريف الارتفاع عن البحر بحوالي ٣٠٠٠ متر وعن الأرض من متر إلى ٢٠٠٠ متر .

من صفات التشكيل الكلسي أن الهضبة تميل دائمًاإلى النزول بحدة في السهل المتاخم لها وأنها نفسها تصعد على شكل شرفات وتكون في الأعلى منبسطة وفيها بالغالب مراع كافية وأشجار السدر والطلح . ويخترق الهضبة القليلة المياه إجمالاً وديان كثيرة شديدة الانحدا ر غالبًا ولها جدران حادة . وتوجد الزراعة في هذه الوديان ويسكنها أهالي نجد . وتُسقى التربة المختلطة بالرمل والطَّفل الجيري بالمياه المتدفقة بقوة من المنحدرات والتي تغذي أيضًا الآبار بالمياه . ويعتقد بلغريف أن جو جبل طويق ومعه جبل شمّر من أكثر الأجواء صحة ، وهذا هو السبب وراء لون الوجه الناضر والقامة القوية لسكان هذه الجبال .

سار المرء في شِعب الوادي الموصوف أعلاه ، والموجود في إقليم سدير ، إلى قرية الغاط الواقعة على حافة الوادي والتي كانت تفيض آبارها آنذاك . وتوجد بيوت القرية في صفوف جميلة فوق بعضها البعض وتظللها أشجار التين والرمان والنخيل ؛ وأمام بيت رئيس القرية كان يوجد ساحة خالية وبالقرب منها جامع يبتعد عن الفخامة . وكما هو معروف عن حسن ضيافة أهل سدير ، حتى في بلاد العرب المضيافة ، فإن الشاب استقبل الرحالة بحفاوة . وكان منع تدخين التبغ في هذه البلاد أعطى للقهوة مذاقًا أفضل . ويستطيع المرء أن يلاحظ هنا مدى قدرة النجديين على السيطرة على أنفسهم والمحافظة على الهدوء تجاه سوء السلوك وعلى عدم تعكير نبرة الأدب الكريم والرفيع . وكانت الضيافة في قلعة شيخ القرية ممتازة . وعندما عزمت الجماعة في اليوم التالي على مواصلة السفر امتطى الشيخ جواده بقصد اصطحابهم وذلك في الوقت الذي رجع فيه المرافقون المسلّحون الذين جاؤوا مع الرحالة من بريدة . وابتداء من هذا الموقع بدا أن مثل هذه الإجراءات الأمنية لم تعد ضرورية في « بلاد فيصل » .

هذه الأخبار التي أوردها بلغريف تجعل خريطة كيبرت الموضوعة في عام ١٨٦٤م غير صحيحة ، وكل من يريد التأكد من الاختلاف عليه مراجعة الخريطة الجديدة الموضوعة في عام ١٨٧١م . كما أن وصف طريق اليمامة كما ورد على لسان دليل فيتسن شتاين يختلف عن تتابع القرى من عنيزة إلى الرياض كما ورد على خريطة ١٨٧١م .

يمتد الطريق في شعب الوادي في ظل أشجار النخيل إلى أن يصل المرء إلى العَقْبَة أو الثنْية ، المسمَاة هنا عقبة الغاط ، ومن ثم يرتقي الهضبة إلى مرتفع جديد حيث شاهد بلغريف لأول مرة منذ أن غادر منطقة البحر الميت ،'أي منذ منتصف يونيو ، سماءً ملبدة بالغيوم وهطول مطر قليل .

استمر الاتجاه شرقًا وظلت الطرق موحشة ولكنها تتصف بالأمان التام . وبعد الظهر وصلت الجماعة إلى العاصمة السابقة للإقليم المجمعة التي يبلغ عدد سكانها ١٢ ألف نسمة (!) وتقع برفق على مرتفع في الوادي العريض وتحيط بها البساتين التي يفصلها عن المدينة خندق تحصين عميق محيط بالأسوار . وكانت الأسرة الحاكمة هنا ، مع أنها سلفية مخلصة ،تخلت في الآونة الأخيرة عن نفوذها الذي كان الأمراء النجديون تركوه لها ؛ ويتولى أحد الأمراء حكم البريمي في غرب عُمان وآخر في الهفوف والأمير الأصغر يعيش كمواطن في المجمعة . ومنذ ذلك الوقت باتت تمير الواقعة على بعد مسيرة يوم جنوب بشرق هي عاصمة الإقليم ويحكمها حاكم من غير أهل البلد أرسلته (العارض) إليها . وفي المجمعة استقبل الأمير الشاب الرحالة بترحاب بالغ . ومن شرفة الطابق الأعلى لقصر الأمير العالي تمكنوا من التمتع بأجمل مشهد لشرفات الجبال في الشمال والشرق ومشاهدة المزارع الخضراء في السفوح .

في صباح اليوم التالي سار الجمع من منحدر المجمعة ، الذي يقع على نفس مستوى ارتفاع الهضبة الأولى التي ارتقوها ، وصعدوا إلى أعلى بالقرب من حوض نبع متدفق يكثر العشب حول حوافه وتعطيه أصوات الضفادع حيوية فائقة . ولا تكفي المياه الجارية إلا لمسافة تتراوح ما بين أربع إلى خمس ساعات وذلك حتى جلاجل التي عبرها الجمع عند الظهر ؛ وهناك تغيب المياه في مزارع نخيل المدينة العتيقة . وبعد ساعة تظل مدينة الروضة ، التي تشبه جلاجل من ناحية المساحة وخصب المناطق المحيطة بها ، على جانب الطريق من ناحية الشمال . وأخيراً ارتقى بلغريف مرتفع الهضبة الفوقية حيث قابل عدداً كبيراً من البدو من قبيلة مطير ، الذين كانوا في السابق يحكمون شمال شرقي نجد وهم الآن رعايا للأمراء السلفيين . كما قابل بلغريف في اليوم التالي بضعة أشخاص من بني قحطان من السليّل ، التي هي «الزاوية بين وادي الدواسر ونجران » وكان هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى القبيلة المشهورة آنذاك والتي هاجرت من اليمن إلى الشمال . وقد اتصف هؤلاء الأشخاص بقصر القامة والوداعة بالمقارنة مع بدو الشمال الصاخبين .

وصل بلغريف فوق الهضبة إلى تمير التي يبلغ عدد سكانها من ١٢ إلى ١٥ ألف نسمة . وجو هذه المدينة أبرد وموقعها أقل ملاءمة للريّ من المجمعة ويوجد فيها أزقة ضيقة ومتعرجة وبيوت عالية لفت ارتفاع الغرف السفلى فيها نظر بلغريف . وكانت ساحة السوق الواسعة تقع عند سور المدينة والتحصينات في حالة سيئة ويحيط بها خندق عميق . وللمرة الأولى منذ وقت طويل حصل بلغريف على خبز به خميرة . وبعد أن تجاذب بلغريف وصحبه الحديث عند مشارف المدينة مع المارة القادمين من القرى العديدة القريبة خلدوا للنوم في إحدى الغرف وليس ، كما

هي العادة حتى الآن، على السقف ، وذلك بسبب برودة هواء الليل ؛ ويجدر القول أن هذه المنطقة كغيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية تخلو من الحشرات ، كما يندر وجود البعوض والذباب ولا توجد أفاعي بكثرة في نجد على الرغم مما جاء حول ذلك في الرواية السخيفة التي ألّفها (لامرتين) بعنوان « مذكرات فتح الله» .

مررنا بعد ذلك بقليل بقرية تسمى الحفر ، وهي قرية كبيرة ذات أسوار دفاعية محصنة وتقع مقابل حصن مربع ؛ وبعد هذه القرية ببضعة ساعات توجد بلدة ثميد المهدَّمه التي يخيم هتيم بالقرب منها . وحياة هذه القبيلة الكثيرة الترحال تشبه حياة الغجر ؛ وإذا لم أُخطئ فإن غوارماني يسميهم بهذا الاسم . ومن هذه النقطة التي تعتبر أعلى درجة لسلسلة جبال طويق المركزية كان النظر يقع في الجنوب والغرب والشمال على مشهد بلا حدود . وعبر ممر تنيات عطالة صعد الرحالة إلى أعلى وساروا مدة أربع ساعات على ظهر الجبل وهم يشاهدون جبل عطالة القريب في الشرق (٢٦ درجة شمال خط العرض وليس كما على الخريطة الموضوعة عام ١٨٦٤ جنوبي المدار) والذي هو الأعلى من بين جبال طويق (٣٠٠٠م) . بعد ذلك ساروا على طريق شاق وزلق نحو الهضبة التالية وذلك حتى بلدة صادق حيث استضافهم الحاكم في الليل وقدم لهم كمية وفيرة من اللحم والأجبان والعسل والحبحب والخبز .

في اليوم التالي وبعد مسيرة عبر أدغال كان فيها أعداد من الأرانب والأحجال وبين الصخور شاهدوا عند الظهيرة على يمينهم مدينة حوطة سدير التي هي الأكثر ازدهاراً في سدير ويسكنها تجار نشيطون وفلاحون ماهرون . وكانت المدينة تقدمت كثيراً تحت الحكم النجدي المركزي والوطني وبعد توقف الخلافات

المحلية والغزوات وبشكل مشابه لما حدث في الأقاليم النجدية الأصلية سدير والوشم والعارض واليمامة والأفلاج . وبعد المرور بعدة قرى وصلوا عند الغروب عبر الهضبة المتموجة إلى مدينة حريملاء Horeimela (عند كورانسه وفون ساسي Hereimla) التي هي موطن المجدد محمد بن عبدالوهاب الذي انتشرت دعوته في نصف بلاد العرب ووصلت إلى الهند . وتتبع حريملاء سدير وتشكل المدخل الشمالي أو المفتاح لوسط نجد ، أو ما يشبه شقراء في الغرب والشرفة في الجنوب وممر وادي سولي في الشرق . وهذه القرى الأربع هي المراكز الخارجية لوادي حنيفة الذي كان يدعى سابقًا وادي مُسيلمة والذي هو الوادي الرئيس في وسط الجزيرة العربية وتقع في قراره مدينة الرياض . وكانت حريملاء تُغلق آنذاك الشعب الذي له شكل القُمع وسار المرء فيه قبل قليل ؛ وتتصف التحصينات الخارجية للمدينة بأنها قوية .

استقبل حاكم المدينة السلفي المتعلم الرحالة بحفاوة ؛ ومما كان له وقع حسن لدى بلغريف أن الحاكم كان يتمتع بالفصاحة المشهورة عند العرب عمومًا وعند النجديين بشكل خاص ويتكلم بلغة عربية صافية كل الصفاء .

قبل ظهيرة اليوم التالي وصل الجمع إلى أول مدينة في العارض وهي سدوس ؛ وبعد أن غادورا هنا غور الوادي تابعوا السير عبر سلسلة الجبال حتى ساعة متأخرة من الليل . وبعد أن أخذ منهم العطش كل مأخذ ، بسبب عدم وجود آبار ماء منذ أن تركوا سدوس ، وصلوا إلى حافة وادي حنيفة وانعشوا أنفسهم بماء من بركة بها ماء صاف ثم واصلوا السير في الوادي في اتجاه جنوب غرب عند خرائب العينية Ejâna (Ajâne` وعند فيتسن شتاين Ojêna`) . وعند بيلي نجد أن وادي حنيفة هو قرار

الوادي بين مرتفعات العارض ، شمال شرق الوادي ، وبين مرتفعات طويق التي تبدأ غرب سدوس وتمتد إلى الشمال غرب . وعليه تبدو عيمان Ejmna` لديه هي العينية Ejâan لدى بلغريف . والوادي الذي يبلغ عرضه هنا ساعة مكسو بالخضرة وجوانبه مملوءة بالكهوف التي تختبئ فيها الضباع والثعالب ؛ كما يوجد أعداد من الإيّل .

بعد عبور الروضة مجدداً وصل الجمع إلى قرية الملقا حيث ينقسم الوادي ويذهب فرعه الجنوبي إلى الدرعية وفرعه الجنوبي الشرقي إلى الرياض ، والأصح شرقًا إلى الدرعية وجنوب شرق إلى الرياض . وعند نقطة الانقسام مباشرة يوجد بيت مفتوح مخصص كمكان لاستراحة المسافرين في ظل أشجار الليمون والتين بالقرب من بئر وفيرة المياه ومن بستان كبير مملوك لولي العهد آنذاك عبدالله .

عندما تابع الجمع السير في فرع الوادي الذي يقود إلى الدرعية المهدمة فإنهم إختصروا الطريق وشاهدوا على سطح الهضبة مجموعة من الخرائب ، التي كان إبراهيم باشا أقامها كمراكز خارجية للدفاع عن المركز المهم آنذاك ، وأيضًا الأسوار المنفردة لثكنة مربعة كبيرة لها سقوف واطئة وأبراج مستديرة . والآن مرّوا بخرائب عاصمة السلفيين الدرعية التي كانت مدينة مهمة يسكنها نحو ٦٠ ألف نسمة . وجاء مرورهم بالمدينة عندما كانت الشمس ترسل آخر أشعتها على الميدان الصامت المهدم وعلى صفوف الطرق التي لا تزال ظاهرة للعيان وأطلال القصر والجامع الكبير وبناء البرج القديم فوق المدينة . وتحيط الخرائب الرمادية بحلقة خضراء قاتمة لبساتين رائعة كان يقيم فيها أيام بلغريف مجموعة صغيرة من المزارعين السلفيين .

في صبـاح اليـوم التـالي وبعـد مـواصلة السيـر على المـرتفـع شـاهد المـرء فـجأة الرياض أمـامـه . الـرياض : « الهـدف الـرئيس من الـرحلة الطـويلة وعـاصـمـة نـجـد ونصف شبه الجزيرة العربية » .

مما لاشك فيه أن إقامة بلغريف في الرياض التي استمرت حتى ٢٥ نوفمبر ، أي نحو أربعة أسابيع ، كانت هي الجزء الغني بالنتائج من مجمل رحلته العربية : إن مـا كتبـه بلغـريف عن الدولة النـجدية وأفكار حـاكـمـهـا وعـن السلفـيـة والـعـلاقـات الاجتماعية في هذه المملكة هو الذي أعطانا معرفة كافية وذلك بالإضافة إلى وصفه للسلوك والعادات التي استطاع التعرف عليها خلال إقامته القصيرة في المدينة .

نطالع أولاً المعلومات الطوبوغـرافيـة التي لهـا عـلاقة بالمـدينة الفتيـة وفي ذات الوقت المـهـمـة تاريخيًـا . عندمـا وقف بلغـريف ورفيـقه بركـات على مـرتفـع فـوق الرياض فانـهما شـاهدا الوادي المنفتح نـحو الجنوب في أفق بعيد ومنبسـط ، وكانت المدينة ذات الجوانب الأربعة والأسوار الثابتة والأبراج وقلعة الملك المتينة وغيرها من المـباني التي تبرز من بين الكتلة الرمادية من السقـوف والشرفات، تـجثم أمامـهم في مقـدمة الوادي . وحـول المـدينة بطول عـدة أميال امتـد حـزام البساتين وسُمعت خشـخشة عـجـلات آبار المـيـاه . وفي الأفق البـعـيـد في الجنوب يقـع إقليم اليـمـامة الواسع والخصب الذي يوجد به عـدد لا يحصى من الأحـراج والقرى ؛ وعلى حد العارض واليمامة رأى المرء مدينة منفوحة المهمة ، وخلفها سلسلة الجبال الزرقاء وعلى الجـانب الآخـر منه في ضبـاب الأفق صحـراء الجنوب الكبـرى ، الدهناء ، الربع الخـالي . وفي مـواجـهـة الغـرب يضـيـق الوادي إلى الشـعب الذي تقع فـيـه الدرعية ؛ ويرى المرء في الاتجاه الجنوبي الغربي المرتفعات الواطئة لإقليم الأفلاج

التي تفصله عن وادي الدواسر . وإلى الجنوب الشرقي من الرياض لمح المرء عبر أرض متموجة وادي السلي الكبير الذي يمتد موازيا لطويق في الاتجاه الشمالي الشرقي والذي توجد في نهايته الجنوبية مدينة الحوطة التي تتبع اقليم الحريق ويقع مباشرة على حدودها في جنوب الصحراء الكبيرة . إنه مشهد عظيم مزيّن بالمناظر الساحرة والأحداث التاريخية .

نسير الآن من الشمال شرق بين اسطبلات الملك والبساتين وعبر ساحة مقبرة كبيرة لنصل إلى بداية المدينة المحصنة والمحروسة جيداً وإلى الشارع الرئيس المتجه من الشرق إلى الغرب الذي يمر عند قصر أكبر أبناء الأمير فيصل ويؤدي إلى ساحة المدينة الرئيسية الكبيرة . وبينما يشمل سور قلعة الملك عند هذه الساحة كل الجهة الجنوبية فإن الجهة الشمالية تغص بالدكاكين والجهة الغربية بالأروقة . ويؤدي الشارع الرئيس من القصر إلى الجامع الكبير ؛ وعلى الجانب الآخر من الرواق تواصل الساحة مداها وتحيط بها هنا أيضًا الدكاكين . ويقسم بلغريف أقسام المدينة الأربعة كما يلي : يضم القسم الشمالي شرقي البنايات العامة ومنزل الأمير وبه بيوت عالية وشوارع مستقيمة ، والقسم الشمالي الغربي مبنى بدون انتظام ويستعمل لسكنى الأغراب والزوار ، والقسم الجنوبي الغربي الذي هو مقر العلماء السلفيين وأماكن سكناهم لا يشم المرء فيها رائحة التبغ « المُعيب» ولا يرى خيطًا حريريًا في الثياب ، أما القسم الجنوبي الشرقي فهو الأكثر كثافة بالسكان الفقراء ويسمى حازق . وهذه الأقسام ليست مفصولة عن بعضها البعض عبر مداخل أبواب خاصة ولكن المدينة كلها تحيط بها الأسوار المتينة ذات الارتفاع الذي يتراوح مابين ٢٠ و٣٠ متراً والتي يزيد من متانتها خندق له سد منيع . ويقدر بلغريف عدد السكان بحوالي ٢٥ ألف نسمة .

يوجد في بناية القصر الملكي باحات وممرات وصفوف من الغرف ويوجد في السور الطويل للقصر الخارجي مدخل هو الباب الوحيد للقصر . وهذا الباب له شرفات واطئة وضيقة وله أضلاف يغطيها الحديد ويؤدى أولاً إلى ممرات مظلمة يحرسها رجال مسلحون . ويتصف القصر وأجزاؤه بالمتانة والأمن وهما المطلبان اللذان كان يصر عليها الإمام فيصل . ولهذه الأسباب كان يحيط بالقصر خندق من ناحيتين ، أما الناحية الثالثة فهي مُؤمَّنة بصخرة مائلة .

يوجد في كل موقع يسكنه السلفيون مسجد يصلي فيه المسلمون الصلوات اليومية وصلاة الجمعة ويتسع لعدد كبير من الناس وليس به أي زينة أو سجاد وله بدلاً من المئذنة سقف قليل الارتفاع . والجامع الكبير في الرياض لا يختلف كثيراً عن هذا الوصف . ويؤكد بلغريف وجود نحو ٣٠ مسجداً صغيراً في أحياء المدينة .

يرى المرء في سوق المدينة الملابس الشعبية المألوفة في كل أجزاء شبه الجزيرة العربية مثل الجبة الحريرية المعروفة عند العمانيين والمعطف المفتوح المعروف عند البدو . وبضائع السوق ، كما هو طبيعي في عاصمة مثل الرياض ، من أجود البضائع ومن بينها اللحوم . فالنجديون الأصليون من العارض واليمامة مزارعون ماهرون ويشتهرون بتربية الحيوانات . وأغنام نجد ممتازة ويُذكّر صوفها بصوف الكشمير ؛ ولوكانت الطرق التجارية الملائمة متاحة لأمكن تزويد نصف تركيا بالصوف وبلحم الأغنام من نجد .

يذكر بلغريف أن تربية الجمال في نجد منتشرة وناجحة ويبلغ السعر بالمتوسط ما بين ٨ و ١٠ تالر (لأي الأنواع ؟) . وعدد الأبقار ذات السنام الواحد في نجد أكثر من عددها في المناطق الشمالية ؛ كما يوجد لحم الصيد . ومع ذلك فإن ملك عالم

الحيوانات في نجد ، وربما في كل المعمورة ، هو الجواد الذي يشتهر في العالم بجماله وسرعته وصبره وذكائه . وتنتشر معظم خيول الأسرة المالكة في العراء . ويخصص بوركهاردت فصلاً موسعًا من كتابه (البدو ، صفحة ١٦٥ وصفحة ٣١٣) للخيول العربية .

لا يضرب الأمراء السلفيون النقد بأنفسهم بل يتداولون مع النجديين التالر التركي المسمى المجيدي والليرة التركية والمصرية (٦تالر) وتالر ماريا تريزا . ويساوي الريال (واحد وثلث تالر) وتتحدد أسعار الأشياء القيّمة بالريالات ؛ وفي عام ١٨٦١م كان سعر الجمل في الرياض ١٠ ريالاتُ والبقرة ٤ ريالات وحِملْ جمل من التمور (٥, ٤ قنطار ، القنطارالواحد = ٥٠كغم) ٦ تالر وصاع البن ريال واحد .

يتصف سكان نجد بالرجولة الحقة وتسود أخلاق الفروسية في سدير . وفي العارض يتميز الناس بالجدية ودون اي ميل للتظاهر والبهرجة ، أما الشجاعة فلا ينكرها عليهم أحد . ويستحق أحفاد بني تميم الثناء لأنهم معروفون بالصبر والذكاء والتماسك القبلي وقلة الكلام ووضوح التصميم وصداقتهم تتجه أولاً إلى أقاربهم الأقربين وملامح وجوههم جدية ولديهم مقدرة عالية على الحكم والتنظيم في إطار الدولة وعلى التصرف حسب نسق معين ويتمتعون بعقل منظم وإرادة مركزة . فهل يحق التعجب والحال كذلك من إخضاع النجديين نصف الجزيرة العربية لحكمهم؟

ويذكر بلغريف أيضًا أن لغة النجديين هي لغة القرآن العظيمة . ويشهد من واقع حديثه معهم أو من سماع معاريضهم أمام الدواوين بفصاحتهم الطبيعية .

***

سنذكر فيما يلي خبر الاستطلاع الذي قاده بائع متجول من نجران ونفّذه بلغريف في الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر ووصل به في اتجاه الجنوب الغربي إلى إقليم الأفلاج . وهذا الاستطلاع يغيّر من خريطتنا وخريطة كيبرت الموضوعة في عام ١٨٦٤م إلى درجة كبيرة وخاصة قول بيلي بأن الأفلاج هي جزء من إقليم الدواسر ، وقول بلغريف أن الأفلاج يقع مباشرة على حدود العارض وكان يعتقد في السابق أنه يبعد عن هذه الحدود ما بين ٢ و٣٠٠ ميل إنجليزي . ونظراً لأن هذا الفرق المدهش شهد عليه بيلي لمصلحة بلغريف فإننا نوافق على ادعاءاته ولكن دون أن يكون لدينا اطمئنان كامل بشأن جولته في الأفلاج والتي تتصف بالغموض . والجولة القصيرة بدأت من وادي حنيفة في اتجاه الهضبة الجنوبية التي بدت له أقل استواء من الهضبة الشمالية الشرقية ، ومع ذلك كانت السلسلة الجبلية هنا هي أيضًا من نوع الحجارة الكلسية وكانت التربة تتسم بأنها أرض مراعي . وكانت قرية الشرفا الصغيرة لا تزال تتبع العارض ويبلغ عدد بيوتها ٦٠ بيتًا تتكون من فروع النخيل والقش مما يدل على شدة الحرارة الجنوبية. وكان بالقرية مسجد جميل جديد . وفي اليوم التالي قاد الطريق عبر وديان ضيقة بعضها رملي إلى الأفلاج . والموقع الأول الذي وصلناه هو قرية ماشالله التي كان عدد سكانها قليل وينطبق هذا على آبارها وعلى أحراج النخيل والبساتين فيها . وبالمقابل كانت زراعة القطن هنا أكثر منها في العارض وتوجد مزارع الذرة البيضاء بدلاً من العدس الذي يزرع بالقرب من الرياض . وكان الرجال ومعهم النساء يلبسون ملابس نجدية ويحمل الرجال الخنجر المستقيم الثقيل ، بريم، الذي يتدلى من أحزمتهم.

كان الطريق من ماشالله إلى الموقع الرئيس شرقًا يعبر شِعب عميق ذو تربة رملية وكان يوجد على جانبي الطريق قطعان ترعى في مراع ممتازة . وحسب

بلغريف كان عدد سكان شرفا لا يقل عن ٨٠٠٠ نسمة وكانت المياه متوفرة مما مكنّ من وجود البساتين .

سمع بلغريف من دليله أن وادي الدواسر الرملي ذا الشكل الرتيب يبدأ بعد ٢٠ ميلاً جنوبي شرفا وأن طوله يبلغ رحلة عشرة أيام ، أي ٢٠٠ ميل إنجليزي (٥٠٠ ميل ألماني) وأن قراه المبعثرة لا ينقصها الماء .

على الجانب الآخر من الدواسر يأتي المرء إلى منطقة القرى القليلة السكان (انظر أعلاه في فصل عسير) والتي تقع حدودها عند منطقة الطائف وعسير وموقعها الرئيس قلعة بيشة التي تقع على بعد يتراوح ما بين ٤٠ و٥٠ ميلاً إنجليزيًا من وادي الدواسر . وفي ما يتعلق بالدواسر يذكر الرحالة منغين أن عدد سكانه يبلغ ٢٨ ألفًا ويحدد شيمبر هذا العدد بـ ٦٠ الفًا . كما يتحدث شيمبر عن مدينة يبلغ عدد سكانها ١٢ ألفًا واسمها عند منغين سُلَيِّل .

يقول دليل بلغريف إن الطريق جنوب القلعة ، رحلة ثلاثة أيام أي ٦٠ ميلاً إنجليزياً ، يقود عبر المنطقة الرملية الفقيرة ، وادي سليّل ، والتي هي بالتأكيد ، نفس المدينة المذكورة آنفًا . وبعد ذلك على بعد رحلة يومين يبدأ وادي نجران الخصب .

ونود هناك أن نترك مصداقية هذه الأخبار وأخبار بلغريف حول الأفلاج لأبحاث الجوابين الآخرين ؛ وكان بيلي لم يصل إلى الأفلاج . ونود على أي حال تقديم حساب صغير : وصل بلغريف منطلقًا من الرياض إلى شرفا في اليوم التالي ، اي أنه قطع ما بين ١٠ و١٢ ميلاً (ألمانيًا) ؛ وعلى بعد رحلة يوم واحد من هنا قد

يبدأ الدواسر ، أي ٦ نحو أميال (ألمانية) من الرياض ، ويكون المجموع في حده الأقصى ٢٠ ميلاً . ويمتد الدواسر نحو ٥٠ ميلاً (ألمانيًا) . وحتى أيام بلغريف وبيلي كان يُعتقد أن الأفلاج يقع على نحو أربع درجات خط عرض تبدأ جنوبي الرياض ، أي ليس عشرة أميال بل ستين ميلاً (ألمانيًا) ! .

***

في ما يتعلق برحلة بلغريف من عاصمة السلفيين إلى الشرق فإن المهم فيها مايلي : بعد أن ينطلق المرء من الرياض في الاتجاه الجنوبي الشرقي عبر أرض مملوءة بالتلال يصل بعد نحو ٥ ساعات ـ عند سادلير وفيتسن شتاين ليس أكثر من ساعة ـ إلى منفوحة التي تتصف بأنها مدينة جميلة بها بساتين وترتفع عن الرياض . وهنا يتوقف وادي حنيفة . وإذا ما ابتعدنا قليلاً في الاتجاه نفسه فإننا ندخل في وادي السليْع الذي هو وهدة طويلة تقع في الصحراء بين الحريق واليمامة وتضمحل عند حريملاء في الأرض المرتفعة لطويق . ومن هنا وصل المرء إلى السلمية (سُلمية عند سادلير في إقليم الخرج) التي يسميها بلغريف قرية كبيرة وكانت في السابق عاصمة اليمامة . والنبات هنا وفير ولا يعرف بلغريف أن الإقليم يسمى الخرج . وعلى خريطة بيلي تقع منطقة اليمامة وموقعي اليمامة والسلمية مباشرة جنوبي الرياض . ومن الخرج أو السلمية استمر السير في اتجاه الشمال الشرقي على مُرتفع جدب للطويق حيث قضى المرء ساعات الليل الباردة بالقرب من بئر لقيات . وبعد صباح ضبابي جداً قابل بلغريف خلاله فرقة الجيش الزاحفة من الأحساء ضد عنيزة تمتع المسافرون بمشهد جميل في اتجاه الجنوب عبر إقليم الحريق الذي ينفصل عنهم بقطاع صحراوي يلحق به كما يبدو سلسلة جبلية من الشرق والغرب بطول

يتراوح ما بين ٦٠ و ٧٠ ميلاً إنجليزيًا . والمنطقة حارة جدًا ، وباستثناء العاصمة الحوطة لم يشاهد المسافرون مدنًا أو قرى في الأفق البعيد . ومن المدن التي ذكرها دليل فيتسن شتاين علاوة على الحوطة مدينة الحريق أو كما نطقها حريش Haritsch . ويشبه هذا النطق نطق العمانيين لمثل هذه الكلمة . ونؤكد في هذا المقام أن معلومات فيتسن شتاين أدق وأسهل من معلومات بلغريف .

تنحدر سلسلة جبال طويق شرقي لقيات انحداراً مفاجئًا ، نحو ١٠٠٠ متر ، في اتجاه صحراء النفود . وتظهر هنا فلزات الحديد ، وعندما ينزل المرء من الجبل فإنه يصل إلى حوض ماء طبيعي يسمى أويسط ترفده ينابيع ماء غزيرة ويعتبر بسبب صفائه وجودته ملتقى لعدة شوارع وطرق ومكان تجمع للقطعان .

وبعد الخروج من الفوهة الجبلية صعوداً ثم نزولاً في اتجاه الشرق يشعر المرء في الرحلة الليلية بحرارة الصحراء التي يجب بالضرورة اجتيازها وتقع بين نجد والخليج . وقبل سنتين جلب أبو عايشة كومة حجارة ،رجم ، محملة على جمل وصنع منها علامة إرشادية للطريق في هذا البحر الرملي الذي يخلو من أي علامة . وهذا العمل قد ينقذ الناس الذين يهددهم خطر الضياع في هذه المنطقة القفراء . وقد قابل المرء في هذه المنطقة الجبلية من الصحراء الجنوبية الكبيرة التي تنتهي شمالاً عند الزبير بالقرب من البصرة عدداً من أهل مُرة ومعهم قطعان الماعز التي تعاني من العطش . وهؤلاء الناس بعيدون عن المدنيّة ولكنهم يشتهرون بطيبةالقلب ولهم لهجة تختلف كثيراً عن لهجة أهل الشمال ولكنهم يستعملونها بفصاحة . عدا عن ذلك فإنهم يملكون الواحات الصغيرة المنفردة التي تنمو حول ينابيعها الضعيفة والمالحة بعض الشجيرات والأعشاب وأشجار النخيل القصيرة .

وبعد يومين شاقّيْن وصل المرء قادمًا من الصحراء إلى الوادي الرملي العريض الممتد من الشمال إلى الجنوب ، وادي فاروق ، الذي يقع على جانبه الآخر منحدر بمسافة ألف متر وينحدر إلى السهل الساحلي من الأحساء.

***

ننشر فيما يلي بيانات إحصائية حول المملكة النجدية حصل عليها بلغريف من سجل الوزير محبوب في الرياض . ونقارن هذه البيانات مع بيانات نشرها منغين في عام ١٨٢٣م حسب السجلات المصرية وذلك في كتابه المذكور آنفًا .

منغين (١٨١٦م، نُشر في ١٨٢٣م)		بلجريف (١٨٦٢م)		
الأقاليم	عدد السكان	عدد المناطق	عدد السكان	فصائل الجنود
العارض	٢١,٠٠٠	١٥	١١٠,٠٠٠	٦٠٠٠
اليمامة (الخرج)	٩,٠٠٠	٣٢	١٤٠,٠٠٠	٤٥٠٠
الحريق	١٢,٠٠٠	١٦	٤٥,٠٠٠	٣٠٠٠
الأفلاج	١٣,٦٠٠	١٢	١٤,٠٠٠	١٢٠٠
وادي الدواسر	٢٨,٠٠٠	٥٠	١٠٠,٠٠٠	٤٠٠٠
السُلَيِّل	—	١٤	٣٠,٠٠٠	١٤٠٠
الوشم	١٢,٤٠٠	٢٠	٨٠,٠٠٠	٤٤٠٠
سدير	٢٧,٠٠٠	٢٥	١٤٠,٠٠٠	٥٢٠٠
القصيم	١٧,٠٠٠	٦٠	٣٠٠,٠٠٠	١١,٠٠٠
الأحساء	٨٥,٠٠٠	٥٠	١٦٠,٠٠٠	٧٠٠٠
القطيف	—	٢٢	١٠٠,٠٠٠	—
المجموع	٢٢٥,٠٠٠	٣١٦	١,٢١٩,٠٠٠	٤٧,٧٠٠

يضيف بلغريف إلى هذه البيانات أعداد البدو في أواسط شبه الجزيرة العربية كما يلي : عجمان ٦٠٠٠ ، بنو حجر ٤٥٠٠ ، بنو خالد ٣٠٠٠ ، مطير ٦٠٠٠ ، عُتيبة Oteiba` (Ateibe`) ١٢٠٠٠ ، دواسر ٥٠٠٠ ، سبيع ٣٠٠٠ ، قحطان ٦٠٠٠، حرب ١٤٠٠٠ ، عنزة (ليس عنزة الشماليين) ٣٠٠٠ ، أهل (آل) مرة ١٠٠٠ ، عائلات متفرقة ١٠٠٠٠ . ويكون المجموع هو ٧٣,٥٠٠ منهم العُشر مختلف عليه، أي ٨٠٠٠ نسمة .

وحسب قوائم وزير المالية جوهر فإن الزكاة للمقاطعات بلغت في أيام بلغريف نحو ٦٠٠ ألف تالر بروسي ، أي نصف تالر على الفرد سنويًا علمًا بأن ثلاثة أرباع المبلغ الإجمالي كان يأتي من القصيم والأحساء . وكانت التحصيلات من الحلفاء تبلغ نحو ٥٠ ألف تالر وكان يأتي مثل هذا المبلغ تقريبًا من الهدايا والغرامات والغنائم الحربية . ويجب هنا التذكير بأن حكومة السلفيين لم تكن تملك جيشًا نظاميًا أو أسطولاً بحريًا وليس عليها دين خارجي تدفع عنه فوائد .

٥) من الكويت عبر الرياض إلى الخليج الفارسي :

من الناحية الزمنية يجدر الآن التحول إلى رحلات غوارماني في شمال غرب شبه الجزيرة العربية . ويبدو أنه ذلك ليس من غير المناسب لأن علينا أن نملأ الفجوة بين طريق والن من جبل شمّر إلى الفرات وطريق بلغريف من نجد إلى الجوف ومن ثم مرافقة أبحاث غوارماني وفيتسن شتاين التي ترتبط في جزء كبير منها بالمنطقة نفسها في الغرب . وهذه الفجوة ملأها في عام ١٨٦٥م المقيم الإنجليزي في بوشير (أبوشهر Abu Schehr) الكولونيل بيلي عندما جاء من الزاوية الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة العربية مباشرة إلى نجد . وكما أسلفنا فإن التقرير

حول هذه الرحلة التي قام بها بيلي بمرافقة الدكتور كولفيل واللفتنانت دور نُشر في المجلد الخامس والثلاثين من مجلة الجمعية الجغرافية الملكية تحت عنوان : «زيارة لعاصمة السلفيين» والتي أرفقها بخارطة استفاد منها كيبرت في عام ١٨٧١م لرسم خريطة «الشرق الأدنى».

في ما يتعلق بأهمية الاكتشافات لا يمكن مقارنة رحلة بيلي مع رحلتي والن وبلغريف . والواقع أن ذلك لم يكن هو هدف بيلي ، فكل قصده كان هو الوصول إلى تحديد علمي لموقع الرياض والهفوف والمواقع الأخرى ، وإلى وصف السمات الطبيعية للمنطقة الواقعة بين الرياض والخليج . كما كان بيلي يريد إجراء محادثة مع السلطان السلفي . وهكذا كان بيلي أول زائر أوربي رسمي لعاصمة المملكة السلفية منذ سادلير .

كان طريق سير بيلي إلى نجد من الشمال ـ الشمال الشرقي ، اما سادلير فجاء في عام ١٨١٩م من الشرق ـ الشمال الشرقي ، والدربان يلتقيان في محطة سادلير التي وصلها في أغسطس واسمها عنده أورما Aurma وعند بيلي أورمة Ormah ؛ ومن هنا سار بيلي في اتجاه الشمال الغربي إلى سدوس وسار سادلير جنوبًا إلى منفوحة .

في ١٨ فبراير ١٨٦٥م انطلق الجمع على الجمال برفقة رجل من هتيم Solibâ من الكويت ، التي جاء المسافرون الثلاثة من بوشير إليها ، وقطعوا في ٢٦ يومًا (كانت ثلاثة أيام من هذا المجموع أيام راحة) نحو ٢٣٠ ميلاً ألمانيا وذلك بمساعدة حيوانات نشيطة كان أحدها يقدم الحليب . وهذا الإجراء الحذر لمواجهة قلة المياه جاء بمشورة من بيلي . وبين اليوم الأول والعاشر لم تشرب الحيوانات إلا مرة

واحدة . وقدّر بيلي عدد سكان الكويت بحوالي ٢٠ ألف نسمة وأشار إلى ازدهار التجارة الحرة فيها وقدّر عملياتها التجارية بحجم ٤٠٠ ألف تالر سنويًا .

لا يوجد حتى حدود نجد مسكن ولا شجرة ولا ماء جار . وكان العبور يبدأ أولاً بـ تبلة وارا وصباحية . وعند محطة لقيط يتفرع الطريق إلى الزلفي . وإلى الجنوب منه يوجد السد الرملي غرْيَنْ ومنطقة ورعا كحد جنوبي لمنطقة أدان الساحلية ، والسهل الساحلي الآخر حتى القطيف يسمى أم جنيب . ويتصف المشهد بوجود التلال الرملية واحة دلعة ودلعة الخبروت (كبريت) . وتتبع قرى شوق وورعا وسمعان برتابة تدريجية صاعدة . وتمتد سلسلة التلال لمنطقة شوق في اتجاه الشمال حتى جبل سبوان بالقرب من الزبير عند البصرة .

مع الارتفاع التدريجي للأرض بدأ الجو يتحول إلى البرودة . وتقع منطقة ورعا على مشارف منطقة سُمعان التي تنضم إليها من الشمال الغربي وتشتمل على وديان رملية وكثبان وسدود ترابية ، ويوجد في منخفض بئر وربا (عين دَرْبة)، الذي يؤمه سنويًا أعداد كبيرة من البدو، بقايا قلعة . ومن هنا يصل المرء في ستة أيام إلى المجمعة في سدير . وتوجد نباتات قليلة على شكل بصيلات يأكل البدو جذورها، كما توجد بعض شجيرات الحمّيض . وبعد الوصول إلى الدهناء شاهد الرحالة صفوفًا متوازية من التلال الرملية وتلال الصخور الرملية والتي توجد أرض صلبة بينها . وكان من الضروري ارتقاء سبعة من هذ الصفوف والتي تبعد عن بعضها البعض من ٥ إلى ١٠ أو ١٢ ميلاً (إنجليزيًا) . وهنا عاد المرء ليرى حيوانات كبيرة وأحيانًا ظبيًا ووربة وأرنبًا وضباً وأفاعي وجعران .

في أول مارس وصل المرء إلى منطقة أورما الواقعة جنوب غربي الدهناء والتي كان فيها بعض الآبار وأول أشجار يراها المرء منذ مغادرته الكويت . وتشكل هذه

الأشجار دغل ميموزا . وهكذا وصل المرء إلى نجد . وتشكل سلسلة تلال الثمامة الحدود الغربية لـ (العرمة) ويوجد على يمين ويسار الطريق مسرح مدرج ثم سهل ضيق وظهير رملي ثم سهل ارتقى الرحالة منه على مرتفعات العارض . وبين هذه المرتفعات وطويق (بيليTowaij) توجد هضبة المحمل (ربما ذكرها منغين في عام ١٧٥٧م في .Precis de l'Hisroire etc) ، التي تقع عليها مدن حريملاء (Horeimele) والبير وثادق . والسهل الذي يكملّ المحمل في اتجاه الشمال هو سهل بطين (المقصود الباطن Batin) الذي تقع علي حافته الغربية مباشرة شرقي طويق من الجنوب إلى الشمال مدن العودة والعطار والحوطة والروضة والتويم وخريف وجلاجل والمجمعة والغاط ،وهي الأسماء التي تعرفنا على بعضها من الأخبار التي أوردها بلغريف والتي يتطابق موقعها عند الجوابين .

تقع الزُلْفي (Zolfi, Zalfa) على مسافة ١٢ رحلة يوم من الكويت وخمسة من الرياض . وكان يمكن للرحالة أن يبدؤوا من سهل الشِعاب ويذهبوا مباشرة من ناحية الجنوب إلى العاصمة النجدية ولكن بيلي كان يرغَب في مشاهدة سدوس لكي يرى فيها عموداً أثريًا سمع عنه ومن ثم يتابع وادي حنيفة ، أي أولاً الجنوب الغربي ثم الجنوب الشرقي . وبعد ذلك وصلوا إلى وادي وطّور الذي تقطعه البئر وقلعة صغيرة ثم واصلوا السير عبر جبال العارض ووصلوا عند المدخل الغربي للوادي إلى سدوس التي كانت موفورة المياه وتحيط بها أشجارالنخيل .

بعد حصول الرحالة للمرة الأولى بعد الكويت على التموين ارتقوا على الناحية الجنوبية الغربية مرتفعات العارض ثم دلفوا عبر هضبة إلى وادي جانبي لوداي حنيفة ثم دخلوا وادي حنيفة نفسه عند نهايته الشمالية الغربية بالقرب من اطلال العاصمة

القديمة الإيمان El-Eyman (عند بلغريف عيينه Ejâna`) التي يقول عنها بيلي أنها المدينة التي ولد فيها مؤسس الجماعة السلفية . وهذا الطريق سلكه بلغريف منذ سدوس . وكانت المدينة في السابق مهمة ومبنية بتبعثر وتملك أسواراً متينة تقف ضد تيار الوادي ولها ارتفاع يتراوح ما بين ٧ و ٩ امتار .

قد يكون وادي حنيفة شعبًا أكثر منه واديًا ويبلغ عرضه ٥٠٠ متر (إنجليزي) وحواف تتراوح ما بين متر واحد و٢٠٠ متر وله وديان جانبية كثيرة على جانبيه . وينبغي رؤية الوادي على أنه الحد الفاصل بين مرتفعات العارض وطويق ورؤية سلسلة جبال طويق على أنها تشمل هذه المرتفعات وتضم من ثَمَّ المقاطعات النجدية العارض وسدير والمحمل (غير موجودة عند بلغريف) والحريق والوشم وتمتد من الزلفي إلى الحوطة في الحريق بطول رحلة ثمانية أيام .

بعد أن استبدل المسافرون وادي حنيفة بالهضبة فإنهم وصلوا إلى خرائب الدرعية Der'ia (عند بيلي Dureeyah) التي تقع في منخفض للهضبة يؤدي إلى الوادي .

عند ظهيرة نفس اليوم ، ٥ مارس ، وصل الرحالة إلى الرياض حيث حصل بيلي على ثلاثة لقاءات مع الأمير أو السلطان الذي يقول عنه أنه الزعيم الديني والدنيوي للبلاد التي يحكمها السلفيون .

كانت عودة الرحالة عبر تشكيل للتربة يشبه الطريق من الكويت إلى نجد ولكنه الآن يتجه شرقًا ، عبر الهفوف في الأحساء ، إلى الخليج (عقير) ، وهو الطريق الذي سلكه أيضًا بلغريف . ويصف بيلي الأحساء بأنها الأغنى والأكثر تجارة والأحسن زراعة من بين أجزاء المملكة النجدية . والتحصين الرئيس في المنطقة هو

الهفوف يضاف إليه ست قلاع وقرى وواحة بطول يتراوح من ٥-٦ أميال ألمانية وعرض ثلاثة أميال ألمانية . والمنطقة مروية جيداً من الينابيع ويزرع فيها القمح ويكثر فيها البساتين وأشجار النخيل .

يوجد للأحساء el-Hasâ (el-Ahsâ) والهفوف اسم قديم هو حجر Hagr ويسمى أيضًا القطاع الحصباوي الصمان Suamaân باسم حاجر Hâgar . ويقول دليل فيتسن شتاين عن حجر أنها تقع على بعد ٢٥-٣٠ ساعة جنوب شرق منفوحة وذلك في منطقة الصحراء الرملية الكبيرة بين العارض والبحرين بالقرب من سلسلة الجبال داخل منخفض عريض من الأرض يدعى جوف اليمامة . ويقول ياقوت أن «حجر هي عاصمة اليمامة» وحولتها غزوة حميرية إلى خربة .

حدد بيلي مكان منطقة الخرج على بعد رحلة يومين جنوب غربي الرياض . ويتحدث بيلي عن مدينة لاتزال قائمة واسمها يمامة تبعد من ٦ إلى ٧ أيام سفر عن الهفوف وتقع في السهل . وهذه المنطقة تُروى جيداً من بئر سيسة ولذا فإنه يكثر فيها أشجار النخيل .

تتوافق حدود المملكة النجدية مع الحدود المذكورة عند بلغريف ، وهي كما يلي : في الغرب ، من الجوف في الشمال حتى الوسط بين الحجاز والدواسر في الجنوب ؛ في الجنوب ، الربع الخالي ؛ في الشرق الكويت حتى أبو ثابي Abuthabi أو أبو ظبي Abu Debi والبريمي Bremi (Birêma) ؛ وفي الشمال ، من الجوف إلى الكويت .

إن المتحالفين مع أمير السلفيين ، وبعضهم يدفع الزكاة، هم : ١) شمّر ؛ تدفع الزكاة وتتوقع مساعدة عسكرية في وقت الحاجة ، ٢) يحق لبعض العشائر

الرعي عند الحدود ، ٣) بعض العشائر ، مثل خضير ، لا يزعجون العشائر المتحالفة ولا يتعرضون للإزعاج منهم . وهذه العشائر التي ترتحل في المملكة النجدية هي : عمور (؟) والسبعة والسهول (؟) وشمّر والعجمان ومطير ودربه وحرب وعنزة وآل مرة وقحطان وعتيبه ودواسر ، ٤) عشائر مستقلة ، تدفع الزكاة ولكن ليس لها حق في الحصول على المعونة العسكرية : سلطان مسقط الذي يدفع ٦٠٠٠ دولار وزعيم البحرين الذي يدفع ٤٠٠٠ دولار والزعماء على ساحل رأس الخيمة حتى أبوظبي يدفعون ١٢ ألف دولار .

وهنا نُنهي مطالعتنا لأواسط وشرق شبه الجزيرة العربية فيما يتعلق بأخبار شهود العيان . ويشهد بيلي على صحة الأخبار الرئيسة التي أوردها بلغريف مما يدعونا إلى التصديق بشكل عام بما ورد فيها .

٦) من البحر الميت عبر تيماء وحائل وعنيزة ثم العودة عبر الجوف :

في عام ١٨٦٤م حصل ممثل البريد الفرنسي في القدس المولود في مدينة لفورنو الايطالية كارلو غوارماني على تكليف فرنسي وإيطالي لشراء خيول عربية أصيلة . وبهذا الهدف المعلن انتقل غوارماني من القدس عبر البلقاء ، شرقي البحر الميت ، ثم عبر منطقة (بنو صخر) Banu Saker (الأصح Sachr) متجهًا إلى حائل .

وكان غوارماني ينتحل اسم خليل أغا ويقدم نفسه كمندوب للحكومة العثمانية . اكتسب غوارماني سمعة طيبة إلى جانب الجوابين المشهورين للجزيرة العربية من الإنجليز والفرنسيين والألمان . وبعدما جاء في مقدمة كتابه على ذكر الرحالة سيتزين وبوركهاردت وسادلير ونيبور وفيلشتيدت وبورتون ووالن ذكر انه شعر بالرضى والبهجة عند انضمامه لهذه الأسماء المرموقة في عالم الرحلات .

أما كتابه (شمال نجد : رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم) " Il Neged Settentorionale, Itinerario da Gerusalemane a Aneizeh nel Cassim, 1866" الذي طُبع لدى الفرانسيسكيين في القدس فهو ليس معروفًا كثيرًا في أوربا بالقدر الذي يستحقه هذا الكتاب . وأشكر في هذا المقام كارل أندريه الذي ما كان لي أن أصل إلى هذا الكتاب دون مساعدته القيمة . ويجدر الإشارة إلى أن النتائج الرئيسة لهذه الرحلة جاءت في تقرير روزن الذي نُشر في المجلد الثامن عشر من مجلة الجغرافية العامة (برلين) وألحق بهذا التقرير سبع خرائط للطرق السبعة التي سلكها غوارماني : ١) من وادي جليط Galeit شرقي البحر الأحمر إلى تهامة : ٢) من الجوف إلى كسيبة في شمالي وادي سرحان ؛ ٣) قرى في وادي سرحان ؛ ٤) منطقة جبل شمر ؛ ٥) من جُبّة إلى الجوف ؛ ٦) من تيماء إلى بير متلا (جنوبي سلسلة الجبال الرئيسة لجبل شمر) ؛ ٧) من جواره Guara (Kuara) عبر بريدة Breda (Bereida) إلى عنيزة Aneza (Oneza) .

كما نشرت المجلة المذكورة خريطة صغيرة وضعها كيبرت حول رحلة غوارماني . ونشير إلى أن غوارماني يستبدل في كتاباته حرف القاف بحرف الجيم .

من الملاحظ أننا نتجول مع غوارماني في المناطق نفسها التي زارها والن . ومع ذلك فإن غوارماني زاد عن رحلة والن بزيارة حائل وعاصمة القصيم وخيبر . ومن المناطق التي زارها والن ولم يزرها غوارماني تلك الواقعة بين البحر الأحمر وتيماء وبين شمر والفرات .

من الغريب حقًا أن غوارماني لم يسمع ببلغريف الذي زار قبل سنتين فقط شمر والقصيم . وهذا الوضع جيد لأن غوارماني يؤكد أخبار بلغريف ، على سبيل المثال دفاع زامل عن عنيزة ضد الجيش النجدي وكذلك ما ذُكر عن شخصية طلال .

وهكذا فإننا نرافق غوارماني في شهر يناير ١٨٦٤م من وادي جليط الذي هو وادي كبير يمتد من الشرق إلى البحر الأحمر وبه احتياطي ماء وبعد هذا الوادي نسير إلى مرتفع أرض الصوّان المغطى بخرائب صوّانية . وكان الشيخ الأكبر لبني صخر في وادي جليط الذي يستطيع تجنيد ٢٢٠٠ فارس مع حرابهم و٢٠٠٠ من حملة البنادق الذين يركبون على ظهور الجمال و٤٠٠٠ من المشاة وزجّهم كاحتياطي في ميدان المعركة ، أعطى غوارماني فرقة لمراقبة أمن المسافرين أضاف إليها رجل من الشرارات ورجل من عنزة ولد علي وثالث من شمّر . ووصل إلى علمنا هنا أن القبائل لديها خيمة ضيافة مشتركة تتناوب العائلات يوميًا استقبال الضيوف فيها . والذي أثار اهتمام الجواب بشكل خاص هو تربية الخيول واستخدام الصقور في عمليات الصيد الصغيرة والركوب على الخيل لمطاردة الغزلان والفهود .

بعد تجاوز وادي شرجه الذي يمتد شمال بغرب إلى وادي مقار ووادي شومري الذي يتحد مع وادي غوير مناعة عند معان وخرائب البتراء وصل الجمع إلى وادي عربة ثم قطع وديان أرض الصّوان إلى أن خرج منها في الاتجاه الجنوبي الشرقي إلى وادي أناب الذي من دعائمه على الجانب الشرقي جبل التبيت البازلتي (أوراس التبيت) . بعد ذلك اجتازوا سهل الفيح الرملي الذي يخضع للشرارات الذين يشتهرون بقدرتهم الفائقة على صيد النعام والظباء والغزلان وعلى تربية الجمال . وتنقسم قبيلة الشرارات إلى أربع عشائر ويمكنها تجهيز ٤٠٠٠ رجل من المشاة من بينهم ٢٥٠٠ مسلح بالبنادق و٢٠ فارس يركبون الخيل . في هذا المكان سمع غوارماني، الذي كان يلبس الملابس البدوية ويرتحل بصفة مسلم، عن الأحوال السياسية في أواسط شبه الجزيرة العربية : فالسلطان النجدي فيصل كان في حالة حرب مع عتيبة ؛ أما طلال فأمر عمه عُبيد أن يغزو الروَلة ـ إنها أوضاع مضطربة سيواجهها الجواب غوارماني قريبًا .

من الفيح استمر السير إلى الجنوب والجنوب الشرقي عبر مرتفع وبحر رملي بعرض ثلاث ساعات ركوب ـ يقطع المرء في ساعة الركوب الواحدة حوالي ١٥,٩٠٠ قدم ـ في اتجاه وادي القار (هذا الوادي مذكور أيضًا على خارطة كيبرت الموضوعة في عام ١٨٧١م) الذي يشكل الحد الجنوبي للمنطقة البازليتة من رأس التبيت مقابل الصحراء الرملية العربية الشمالية بين الحجاز والنفود وبها برْكة بحجم ٥٠٠٠ متر مربع ، ولا يخلو القار من المياه . ثم بعد ذلك إلى منطقة رأس فيجر المملوءة بالأخطار بسبب العداوات القبلية ، مثل تلك التي بين الشرارات وبشر Bischr (عند غوارماني Biseir) حول مناطق الرعي . ورأس فيجر هو جبل ومعلم حدودي للأرض المنبسطة الجدباء الواقعة حول تيماء والمسماة أرض تيماء . وكما كان الحال مع والن فإن غوارماني مكث بعض الوقت في تيماء . ويقدر عدد سكان القرية من رعايا أمير شمر بـ ١٠٠٠ شخص وهي تشبه حرج نخيل كبير تحميه مجموعة من التلال ترتفع ما بين ٥ و ٦ أمتار . وأحياء القرية الثلاثة منفصلة بعضها عن بعض وبها أكواخ من طابق واحد ومبنية من الطوب المفرّغ وبها في كل مكان نخيل وأعناب وتين ويزرع في البساتين أيضًا شعير وقمح وتبغ وحبحب . ويوجد في القرية مسجد له مئذنة واطئة وبعض المزاريب من جذوع النخيل ويبلغ قُطر البئر الرئيس ٤٠ مترًا ويعمل ٤٨ جملاً بلا انقطاع في نزح الماء من البئر . والمنتجات الرئيسة هي التمور والزبدة ولا توجد عملة مضروبة وقيمة الأشياء تقدر بوحدات من الجمال والتمور . ويستطيع أهالي تيماء تقديم ١٥٠ شخصًا قادرًا على حمل البنادق و٢٠ فارسًا . وهذه القوة صغيرة ولا تقدر على مواجهة هجمات الجيران . والذي يحمي أهل تيماء كونهم رعايا لأمير شمّر وبالتالي فهم حلفاء للشرارات وعنزة Aneze (عند غوارماني Anasi) ويدفعون الزكاة مثلهم . ومن هؤلاء العنزة عشيرة

ولد سليمان الذين عّدهم بوركهاردت من بشْر ، ومن ولد علي العليدان الذين ينقسمون إلى عشيرتين هما الفجارة (عند والن وبوركهاردت فكاره) والتوالة . وتقيم عشيرة ولد علي بين تيماء وخيبر وعندها ١٥٠ فارسًا و ٢٥٠٠ قناص بندقية ، أما عشيرة ولد سليمان فعندها ٢٠٠ فارسًا و ٢٥٠٠ جندي مشاة ويسكنون شرق - جنوب شرق حتى جبال الغرانيت درعف التي تحيط بوادي جوف ولد سليمان العميق (على خلاف جوف أمير المعروف) . أماُ قبيلة الهتيم Ehteim بعشائرها الأربعة فتحكم على ٣٥٠٠ مسلح بالبنادق وعلى راكبي جمال ممتازين ولكن ليس لديهم فرسان .

لم يزر والن خيبر . وتقع هذه القرية مثل تيماء في وسط حرج نخيل ضخم وبلغ عدد سكانها آنذاك ٢٥٠٠ نسمة ويوجد بها سبعة أحياء ويمتد فيها سبعة وديان تأتي من سلسلة جبال حرّا وتقدم ماء جيدًا وفيرًا . وسكان المدينة لهم أصول ترتبط بسكان الحبشة وكلهم تقريبًا سود البشرة . ويدفع العليدان عن المدينة لحاميهم طلال ٢٠٠٠ تالر مجيدي .

تابع غوارماني السير في بلاد الهتيم وكاد يهلك بسبب شربه لشراب بارد لولا أن أبناء هتيم أسعفوه بود بالغ . ولم يلبث بعد الإفاقة من هذا الخطر حتى وقع في أسر لم يدم طويلاً ، وهذا الأسر أوقعه فيه دورية متجولة من النجديين كان يقودها حبشي ذكي .

ليس في مقدوري معرفة ما إذا كان غوارماني زار خيبر بنفسه أو جاءت حكاياته عنها عن طريق السماع . فطريقه إلى شمر هو نفس الطريق الذي سلكه والن من تيماء مما يدعوني إلى الاعتقاد أنه ، مثله مثل والن ، لم يزر خيبر . ولذا فإننا نرافق

غوارماني أيضًا من تيماء إلى الجنوب شرق عبر سلسلة صخور في سهل حولات Haulat (Chaulâ) المغطى بالكثبان الرملية ويعتبر جاراً للنفود الذي يمتد من الشمال بغـرب إلى الشـمـال بشـرق وبين جـبل الكلوان el-Keluan (عند والن Holwan) والعنقاء el-Enka ؛ وعلى اليمين يظل جبل البر منعزلاً . وبسبب عدم وجود ماء في المنطقة فإن الحيوانات تضطر إلى شرب الطل في الصباح ؛ وكانت القبائل هنا من عنزة وشمَّر.

ومن جبل (مسمى) في اتجاه الشرق يدخل النفود بدون عائق من الشمال بغرب. وبعد ذلك بمسافة قليلة يبرز من الشمال بشرق جبل أريق Ureik (ربما جبل Warik عند والن) والمرتفعات الواقعة إلى الجنوب منه وتدعى الدرعف وذلك حتى مساكن ولد سليمان في جوف ولد سليمان. وعند بير المتلاّ وصل غوارماني إلى منطقة نجد الأصلية ، أي جبل شمّر وذلك من الشمال بغرب.

وإجمالاً لا يتطابق الوصف الجغرافي الذي قدمه غوارماني عن شمر مع اوصاف والن وبلغريف ويتصف بأنه أكثر دقة ومضمونًا من وصف بلغريف . ولا تختلف كتابة أسماء الجبال والآبار وأحياءالمدن عند الثلاثة إلا اختلافات غير جوهرية.

يذكر غوارماني أن الجبل (جبل شمّر) هو أحد بلاد نجد السبعة وهو السلسلة الجبلية الشمالية مقابل البحر الرملي للنفود الذي يمتد بينه وبين واحة الجوف ، جوف الامير ، ٥٠ ساعة بخطوات الجمال. وإلى الغرب والجنوب من متلاّ حتى مستجده تتشكل الحدود عبر سلسلة من الصخور البازلتية التي تضمحل تدريجيًا في الرمال العميقة في اتجاه المرتفعات الغرانيتية لدرعف . وترتبط درعف في الشمال شرق مع السلسلة المزدوجة لوادي سلمى (عند والن سهل الباطن) . ويفصل جبل

سلمى الجبل عن بلاد جافه Gafe (عند والن Kahfe وعند بلغريف Kefa) التي يبدأ في جنوبها إقليم القصيم ومدن عنيزة والرس وبريدة . وعلى حافة النفود تقع في الجبل قرى جبة وطوية Tueieh (عند والن Tuweie) وقناعة Kenàa (أيضًا عند والن وبلغريف) .

يبلغ عدد سكان الجبل عند غوارماني ٧٥ ألف نسمة (عند بلغريف ١٦٢ ألف نسمة) وهو يقسمهم كما فعل أسلافه إلى بني تميم الذين يتصفون بأنهم أهل حضر وشمّر الذين ـ كما يقول عنهم أيضًا والن ـ هم حضر في قسم منهم . ويذكر أن بدو شمّر الرحل ينقسمون إلى أربعة عشائر هي سنجار وإسلم وعبدة ودغيريث ، وعند والن يضاف إليهم شمر المستقرون وغنيم مما ينتج مجموعًا يبلغ ست عشائر .

يسمى غوارماني أيضًا السلطان النجدي باسم فيصل وبالذات الأمير فيصل بن تركي بن عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود من ذرية عنزة ولد علي من عائلة المصاليخ . ومنذ الاستيلاء على فيد وجافه والجوف ومدينة سكاكا (في الجوف) وخيبر وتيماء وإخضاع قبائل عنزة وولد سليمان والعليدان والشرارات والهتيم وشمر تومان فإن نفوذ الأمير ـ كما يقول غوارماني ـ ازداد أهمية وخاصة «في السنوات الأخيرة» .

حسب بيانات دليل فيتسن شتاين كان الأمير طلال يملك ٣٠٠ فرس نجدية أصيلة ، والرقم عند غوارماني يصل إلى ٦٠٠ . وكانت قافلة الحجاج الفارسية التي كان يحرسها أعوان طلال تقدم للأمير عائدًا مهمًا . ويُعتقد بأن هذه القافلة لم تعد منذ أيام بجلريف تعبر الأراضي النجدية . والأمير طلال متزوج من أربع نساء ويسميه الناس نسبة إلى ابنه الأكبر أبو بندر .

يعيش في الجبال والمساحات الرملية الفهود والنمور والثعالب والذئاب

والغزلان والأرانب والنعام والظباء والماعز والخراف ؛ كما توجد حمير بيضاء ممتازة لدي هتيم .

يذكر غوارماني ايضًا المدن التي تعرّف عليها في القصيم ويقول أن المرء يصلها عبر (فيد) التي يسكنها ٥٠٠ نسمة وجافه التي يسكنها ٢٠٠٠ نسمة وتبعد ٢٨ ساعة عن حائل (تتطابق هذه المعلومات مع دليل فيتسن شتاين) . ويصف عنيزة Aneza (Oneza) بأنها عاصمة القصيم وأنها أهم مدينة في أواسط شبه الجزيرة العربية . ويبلغ عدد سكان عنيزة حسب غوارماني ١٥ ألف نسمة وبها سبعة أحياء . وكما طالعنا آنفاً فإن سادلير زار المدينة في عام ١٨١٩م ولكن بلغريف لم يزرها في عام ١٨٦٣م بسبب الحرب .

حسب الرأي الذي سمعه غوارماني في القصيم فإن الوشم (عند غوارماني Uesem) يقسّم نجد الأصلية إلى قسمين ؛ ويمتد عبر الوشم وادي السر Sarr (عند دليل فيتسن شتاين Wadi Sirr) ؛ وجنوب نجد هي العارض والحريق والأحساء ؛ ويوجد شمال نجد شمّر والقصيم (عند غوارماني Kassim) وسدير .

يعيش بنو مطير شرقي عنيزه (حسب دليل فيتسن شتاين وبوركهاردت ايضًا جنوب بغرب) وهم قادرون على تجنيد ٢٥٠٠ فارس على الخيل وهم منذ القدم متعاونون مع عائلة طلال والهتيم وبني حرب . وكنا تعرفنا على بني حرب في طريق أسفارنا إلى المدينة ؛ وحسب غوارماني فانهم قادرون على تجنيد ١٠٠٠ فارس وهم يدفعون الزكاة للإمام فيصل .

تقع بريدة (Breda, Bereida, Borede) على بعد رحلة يوم من عنيزة واشتهرت في أيام غوارماني بتجارة الخيول . وعلى بعد ثلاث ساعات توجد العيون el-Ajun

(Ejûn) التي كان عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة ؛ وبين عيون وجافة (اي Kahfe) تقع قرية جوارة (Kuara) التي يبلغ عدد سكانها ٢٠٠٠ نفس وسبق لنا الإشارة إليها .

***

نعود الآن مع غوارماني من الجبل إلى الشمال غرب . ويسمى الجبلان الواقعان بالقرب من جُبّه أم سمان والجوطة (عند والن Gaute) ثم نواصل السير من هنا لمدة ٢٥ ساعة حتى جبال عليم Aleim (عند والن Olem وعند بلغريف Alam) . ويحسب من جبه إلى الجوف نحو ٥٠ ساعة ، وهي عند بلغريف ٦٠ ساعة . ويصف غوارماني أيضًا الطريق عبر النفود بأنه خطر ولا يمكن متابعته دون ضياع إلا بحراسة عين البدوي . أما الفلوح والمهجان فهما جزءان رديئان من أجزاء الصحراء الشمالية ، ويذكر غوارماني أيضًا بئر شقيق Schegik (المقصود Schekik) . ويبدو أن طلال أوعز بتدميره لكي يصعّب من غزوات عنزة الرولة ضد الجبل انطلاقًا من الصحراء السورية . وعلى اي حال كانت البئر موجودة في أيام بلغريف ، أي قبل سنتين . ويتبع هذا المكان الـ بني el-Benie الذي هو سد ترابي ثم في اتجاه مستمر للشمال بغرب ، نهاية النفود ، إلى المرتفعات حول الجوف .

يقدر غوارماني عدد سكان مدينة الجوف بـ ٦٠٠٠ نسمة وعدد أحيائها بـ ١٣ حيًا (١٢ عند والن) . ويفصل هذه الأحياء سور يجعل منها وكانها ١٣ قرية منفصلة . ويقول عن قلعة المارد الواقعة في حي الدرعة (عند والن حي دير) أنه مبنى مربع خال من الزينة وكان له أربع أبراج ركنية وشرفة مركزية بارزة . ويلاحظ غوارماني أيضًا البئر الممتازة في حي كادمة Kadema (عند والن Chadma) . وحسب ما أتذكر فإن والن ذكر رواية عن أصل اسم جوف أمير تقول أنه جاء من بني أمير الذين بنوا الموقع على خرائب دومة الجندل . وفي عام ١٨٥٣م (بلغريف :

١٨٥٥م) وبعد حصار قاس ودفاع مرير استمر ٢٠ يومًا استولى طلال على الوادي والمدينة وأسر الأمير خطاب بن سرّا وأخذه معه إلى حائل .

***

هذه هي أهم المعلومات المتعلقة بهذا الكتاب التي حصلنا عليها من الرحَّالة وشهود العيان . وبهذا ينتهي الجزء الأول من وصف رحلات الرحالة الغربيين إلى الحجاز وعسير ونجد في الفترة من عام ١٧٧٠م حتى عام ١٨٧٠م ونستعرض في الجزء الثاني أوصاف رحلات الجوابين الغربيين في اليمن وحضرموت ومناطق الخليج العربي .